

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

حين تتهاوى أصنامُ الأرض وتبقى كلمةُ السماء

رحلةٌ تدبُّريةٌ في وحدة الرسالة، وغفلة الإنسان، وورثة الصالحين

رَدَّادُ السَّلَامِ

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

حين تتهاوى أصنامُ الأرض وتبقى كلمةُ السماء

رحلةٌ تدبُّريةٌ في

وحدة الرسالة، وغفلة الإنسان، وورثة الصالحين

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة منهجية

ليست سورة الأنبياء سجلاً تاريخياً لأسماءٍ مضت، ولا معرضاً متتابعاً لمعجزات الرسل وابتلاءاتهم؛ إنها سورة توقظ في الإنسان إحساسه بموقعه بين زمنين: زمنٍ يمرّ سريعاً، ويومٍ يقترب حثيثاً. تبدأ باقتراب الحساب، ثم تمضي بنا عبر صراع الوحي مع الغفلة، والحق مع اللهو، والتوحيد مع الأصنام، والدعاء مع البلاء، حتى تبلغ وعد الله الأخير: أن الأرض — مهما ملأها الطغاة صخباً وفساداً — مآلها إلى عباده الصالحين.

وفي اختيار اسم الأنبياء إشارة بديعة؛ فالسورة لا تعرض الأنبياء بوصفهم شخصيات متفرقة، بل تكشف عن الروح الواحدة التي سرت في مواكبهم جميعاً. اختلفت الأزمنة، وتنوّعت المحن، وتباعدت المواطن، لكن النداء لم يتغير:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

كأن النبوات كلها أنهار متعددة، ولكنها تتحدر من عين واحدة، وتجري إلى بحر واحد. وكأن كل نبيّ جاء ليحرر قطعة من الإنسان: إبراهيم يحرر العقل من صنم الموروث، وأيوب يحرر القلب من الاعتراض في البلاء، ويونس يحرر الروح من ظلمات اليأس، وزكريا يحرر الرجاء من حسابات العقم والسنين، وداود وسليمان يحرران القوة والملك من الغرور، ونوح ولوط يحرران المؤمن من وحشة الطريق حين يفسد الجمع.

وسنقرأ السورة قراءةً تسيّر مع نَفْسِها الداخلي، فلا نفصل قصص الأنبياء عن افتتاحها بالقيامة، ولا نفصل القيامة عن قضية التوحيد، ولا نفصل التوحيد عن حقيقة الابتلاء؛ فالسورة بناء واحد يقول للإنسان: إن لك موعدًا، وإن للكون ربًّا، وإن للوحي غاية، وإن للبلاء حكمة، وإن للصالحين عاقبة.

الفصل الأول

اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

حين يقترب المصير ويبتعد القلب

تفتتح السورة أبوابها لا بصوت المهد الذي تبدأ عنده الحياة، بل بصوت الساعة التي تُطوى عندها صحائفها:

(اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ).

إنها بداية تهزّ إحساس الإنسان بالزمن. فالحساب قريب، لكن الناس يتصرفون كأن بينهم وبينه أبداً لا ينقضي. والمفارقة ليست في أن الحساب اقترب فحسب، بل في أنه يقترب من أناس يتحركون في الاتجاه المضاد: هو يقترب منهم، وقلوبهم تبتعد عنه؛ هو يدنو، وهم يُعرضون؛ هو حقيقة تتقدم، وهم غفلة تنسحب إلى أعماق الوهم.

لم تقل الآية: اقترب حساب المؤمنين أو الكافرين، بل قالت: (لِلنَّاسِ)؛ لأن الوقوف بين يدي الله هو الحقيقة الإنسانية الكبرى التي لا يفلت منها اسم ولا جنس ولا طبقة ولا سلطان. كل الفوارق التي صنعها البشر تنتهي هناك، ولا يبقى إلا الفرق الذي صنعه الأعمال.

والإنسان يشعر بقرب أشياء كثيرة، لكنه قلماً يشعر بقرب مصيره. يشعر بقرب موعدٍ ينتظره، أو خطرٍ يهدده، أو رزقٍ يرجوه، لكنه يعامل الحساب كما لو كان خبراً عن زمن آخر وكائنات أخرى. وهذه من أعجب حيل الغفلة: أن يعرف المرء الحقيقة بعقله، ثم يعيش مناقضاً لها بقلبه؛ فلا ينكر الآخرة بلسانه، ولكنه يؤجلها في شعوره حتى تفقد أثرها في يومه.

والغفلة في الآية ليست جهلاً محضاً؛ فالجاهل قد يتعلم، أما الغافل فقد تمر الحقيقة بقرب قلبه ولا تدخل إليه. ثم إن السورة أضافت إلى الغفلة وصفاً أشد: (مُعْرِضُونَ). فالغفلة قد تقع من غير قصد، أما الإعراض فهو أن يجد الإنسان أمامه باب اليقظة، ثم يولي عنه؛ أن يسمع النداء، لكنه يخشى ما يترتب على الاستجابة؛ لأن الحق إذا دخل القلب أعاد ترتيب الحياة، والإنسان قد يحب عاداته أكثر مما يحب نجاته.

إن الناس لا يعرضون عن الوحي دائماً لأنهم لم يفهموه، بل ربما لأنهم فهموا أنه يريد أن يغيّرهم. عرفوا أن الإيمان ليس كلمة تُضاف إلى قاموسهم، بل سلطان جديد ينزع عن الهوى عرشه، ويضع الضمير تحت مراقبة الله. ولذلك يفرّ الإنسان من الحقيقة أحياناً، لا لضعف برهانها، بل لقوة تكليفها.

يمرّ العمر في هذه الغفلة كما ينساب الماء من بين الأصابع. كل يوم ينقص من المسافة، فيما يظن صاحبه أنه يزداد حياة. يحتفل بعيد ميلاده كأنه كسب عاماً، مع أنه أنفق عاماً من رصيده. ينظر إلى ما تراكم في يديه، ولا يرى ما تناقص من أنفاسه. يبني حول وجوده جدراناً من المواعيد والمشروعات والأمان، حتى إذا جاءه اليقين اكتشف أن الزمن لم يكن بيتاً يقيم فيه، بل طريقاً كان يعبره.

وقوله تعالى: (حِسَابُهُمْ) يردّ الإنسان إلى مسؤوليته الفردية. ليست المسألة حساب العالم وحده، بل حسابهم هم؛ أعمالهم، وأقوالهم، ونياتهم، وما صنعوه حين غاب الرقيب البشري، وما أخفوه تحت البلاغة والمظاهر والتبريرات. سيُردّ كل فعل إلى فاعله، وكل دمة إلى سببها، وكل مظلمة إلى صاحبها. وهناك تتهاوى براعة الإنسان في تزكية نفسه؛ لأن الذي يحاسب لا تخدعه الروايات المنمقة التي نرويها عن ذواتنا.

الحساب ليس تهديداً للمظلوم، بل موعد إنصافه. إن اقترابه رعبٌ للظالم، لكنه عزاء لمن انكسر ولم يجد في الأرض قضاءً يعيد إليه حقه. فلو لم يكن وراء هذه الحياة حساب، لكان كثير من دموع المقيهورين قد ذهبت عبثاً، ولكان الطغاة قد خرجوا من مسرح العالم بغنائهم كاملة. لكن الآية تقول لكل مظلوم: لا تظن أن تأخر الحكم يعني ضياع القضية؛ إن حسابهم قد اقترب، وما نسي الله شيئاً.

وتقول لكل ظالم: لا تغترّ بصمت السماء؛ فإن الصمت إمهال، وليس إهمالاً. وقد يزداد رصيدك في الأرض في اللحظة التي يتقل فيها حسابك عند الله.

ثم تكشف السورة كيف تستقبل القلوب الغافلة وحي ربها:

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ).

إنهم يستمعون، ولكنهم لا يُصغون. الصوت يصل إلى الأذان، أما المعنى فلا يبلغ موضع القرار. وهذه مأساة قد تقع حتى لمن يكثر سماع القرآن: أن تمرّ الآيات على سمعه مألوفة، ولا تمرّ على قلبه مغيرة؛ أن يعرف مواضع التلاوة، ولا يعرف مواضع نفسه من التلاوة؛ أن يردد الوعد والوعيد، ثم يعود بعد لحظات إلى حياته كأن شيئاً لم يُقل.

وصفت الآية حالهم بأنهم (يَلْعَبُونَ)، ثم ذهبت إلى منبع ذلك كله فقالت: (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ). فالمشكلة ليست في حركة الأجساد، بل في غياب القلب. قد يكون الإنسان ساكناً في مجلس الذكر، لكن قلبه يلهو بعيداً. وقد يمسك المصحف بعناية، فيما تمسك الدنيا بباطنه كله. وقد يصمت لسانه احتراماً للآية، بينما تضحّ نفسه بما يحجبها عنها.

واللهو أعمق من الضحك والمرح؛ إنه كل ما يشغل الإنسان عما خلق له، ولو بدا جاداً في أعين الناس. قد يلهو المرء بالمال وهو يحسب نفسه يبني مستقبله، ويلهو بالمنصب وهو يزعم أنه يخدم الآخرين، ويلهو بالخصومات وهو يظن أنه ينتصر للحق، ويلهو حتى بالمعرفة إذا أصبحت وسيلةً للاستعلاء بدل أن تكون طريقاً إلى الخشية.

كم من أعمال تبدو شديدة الجدية في مقاييس الأرض، لكنها في ميزان الأبد لعبة قصيرة! وكم من لحظة دعاء خفية، أو دمعة توبة، أو صدقة لا يعلم بها أحد تبدو صغيرة هنا، ثم تنكشف هناك أثقل من مدنٍ وممالك!

إن اللهو الحقيقي أن تتشغل بما يفنى عما يبقى، وأن تحسن ترتيب الوسائل وتنسى الغاية، وأن تقضي عمرك تزيّن السفينة ولا تسأل إلى أي شاطئ تمضي.

ثم تنقلنا السورة إلى المجالس الخفية التي يتأمر فيها أهل الباطل على الوحي:

(وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ).

كان اعتراضهم أن الرسول بشر مثلهم. وكأنهم يريدون للهداية أن تأتيهم في صورة تعفيهم من اختبار التواضع. لم يفهموا أن بشرية الرسول هي التي تجعل الاقتداء به ممكناً؛ فهو يأكل كما يأكلون، ويمشي في الأسواق، ويعرف الجوع والخوف والحزن، ثم يظل قلبه موصولاً بربه. ولو كان ملكاً لقالوا: وكيف نطبق ما يطيقه من لا تسكنه شهواتنا ولا تعتريه ضعفاتنا؟

لكن الكبر يحوّل الميزة إلى شبهة. كانوا ينظرون إلى المساواة البشرية بوصفها مانعاً من قبول الحق؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا أن يختار الله رجلاً من بينهم، ثم يصبح الواجب عليهم أن يتبعوه. لم تكن أزمته مع بشريته، بل مع ما تستلزمه رسالته من خضوعهم للحق الذي جاء على يديه.

وذلك مرض يتكرر في كل عصر: قد يردّ الإنسان كلمة صادقة لا لخلل فيها، بل لأنها جاءت ممن لا يريد الاعتراف بفضله. يحاكم الحق إلى منزلة قائله في نفسه، بدل أن يحاكم القائل إلى الحق. فإذا جاءت الحكمة من منافس أو فقير أو مخالف أو شخص اعتاد أن يراه دونه، ضاق بها؛ لأن قبولها يقتضي أن تتواضع صورته عن نفسه.

أما قولهم عن القرآن إنه سحر، فهو محاولة لتسمية الأثر من غير الاعتراف بمصدره. لقد أحسوا بقوته، وبقدرته على زلزلة القلوب، فلم يستطيعوا إنكار التأثير، فغيّروا اسمه. وهذه عادة الباطل حين يعجز عن إبطال الحقيقة: يعيد تصنيفها، ويمنحها اسماً منقّراً، ثم يحارب الاسم الذي صنعه بدل أن يواجه حقيقتها.

ويأتي الرد في هدوء العلم الإلهي المحيط:

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

هم أسروا النجوى، لكن سرّهم لم يخرج من سلطان السمع الإلهي. وما يهمس به المتأمرون في الغرف المغلقة مكشوف لرب السماء والأرض، لا يحجبه جدار، ولا تستره كلمة مشفرة، ولا تنجيه مسافة.

وفي الآية سכיنة عظيمة للداعية والمظلوم والمؤمن الذي تحيط به المكائد: لست محتاجاً إلى أن تسمع كل ما يقال عنك، ولا أن تعرف كل خطة تُدبر لك؛ يكفي أن ربك يسمعها ويعلمها. وربما كان من رحمته بك أن حجب عنك كلمات لو سمعتها لأوجعتك، فيما لم يحجبها عن علمه وعدله.

فالله السميع لما يُقال، العليم بما وراء القول: يسمع العبارة، ويعلم الدافع؛ يسمع مدح المنافق، ويعلم ما يخبئه؛ ويسمع صمت المخلص، ويعلم ما يعجز لسانه عن بيانه. عند البشر قد تنجو ببلاغة القول، أما عند الله فلا تنفصل الكلمات عن نياتها.

ثم تكشف الآيات اضطراب المكذبين:

(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ).

إنهم لا يملكون تفسيراً ثابتاً للقرآن؛ فتارة يسمونه أحلاماً مختلطة، وتارة افتراءً مصنوعاً، وتارة شعراً. وهذا التناقض ليس عارضاً، بل شاهد على حيرتهم. فلو كانت لهم حجة واحدة مستقرة للزموها، لكنهم يقفزون بين التهم لأن أيّاً منها لا يصمد أمام نور القرآن.

قالوا: أحلام، ثم لم يقنعهم ذلك؛ لأن الأحلام لا تصنع هذا الاتساق. وقالوا: افتراه، لكنهم يعرفون صدق الرسول وأمانته، ويعلمون أن هذا البيان فوق طاقة البشر. وقالوا: شاعر، وهم أعرف الناس بالشعر، ويعلمون أن القرآن ليس من أوزانه ولا من طرائق بنائه. فكانت اتهاماتهم كأبواب يفتحونها للهرب، ثم يجدون خلف كل باب الحقيقة نفسها في وجوههم.

هكذا يفعل القلب حين يقرر الرفض قبل النظر: لا يبحث عن الحقيقة، بل يبحث عن أي تفسير يسمح له بآلا يؤمن. فإذا سقطت حجة انتقل إلى أختها، لا لأن الثانية أقوى، بل لأن غايته ليست المعرفة، وإنما تأجيل الاستسلام.

ثم طالبوا بآية حسية، لا رغبةً في الهداية، بل فرارًا من الآية القائمة بين أيديهم. وكم يطلب الإنسان دليلاً جديداً، لا لأن الأدلة ناقصة، بل لأن إرادته لا تريد أن تستجيب للأدلة الموجودة! إن المشكلة ليست دائماً في غياب النور، بل في عين أغلقت جفنها ثم أخذت تطالب بمزيد من الشموس.

ويرد القرآن:

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ).

الآيات القاهرة لا تصنع الإيمان في قلب اتخذ المكابرة منهجاً. فقد جاء السابقين ما اقترحوه، فلما ظهرت الآية ازدادوا عناداً، فاستحقوا الهلاك. ليست المعجزة بديلاً عن صدق طالب الحق؛ لأن من أحب الضلال يستطيع أن يحول الشمس في وضح النهار إلى موضع جدل.

وهنا تنبه السورة إلى خطورة أن يتعامل الإنسان مع الله بعقلية الاقتراح: إن فعل الله لي ما أريد آمنت، وإن كشف لي الغيب صدّقت، وإن أجابني على الصورة التي رسمتها وثقت به. هذا ليس إيماناً، بل محاولة لجعل العبد شروطه حاكمةً على حكمة الرب. الإيمان الحق لا يقول: أرني حتى أطمئن إلى أنك تستحق العبادة، بل ينظر في الآيات الماثلة في الوحي والكون والنفس، ثم يعرف أن الله أرحم وأحكم من أن تُحاط حكمته باقتراح إنسان محدود.

وهكذا يضع افتتاح السورة الإنسان أمام ثلاث حقائق:

الحساب قريب، وإن خدعتنا فسحة الأيام.

والوحي يتجدد في الأسماع، لكن الانتفاع به مرهون بحضور القلوب.

والباطل، مهما تكاثرت أسماؤه واعتراضاته، يظل عاجزاً عن الوقوف أمام حقيقة واحدة مستقرة.

إن أول الطريق إلى صحبة الأنبياء في هذه السورة أن نخرج من الغفلة. فالأنبياء لم يكونوا أناساً يملكون معلومات أكثر فحسب، بل كانوا أشد البشر يقظةً للحقيقة الكبرى. رأوا الدنيا من نافذة الآخرة، وقاسوا العاجل بالباقي، فلم تخدعهم زينة اللحظة عن عاقبة الطريق.

والسؤال الذي تتركه الآيات في القلب ليس: متى يأتي الحساب؟

بل: كيف أعيش وقد اقترب الحساب؟

فليس أخطر على الإنسان من أن يقترب منه مصيره، بينما يظل قلبه منشغلاً عنه؛ وليس أنفع له من لحظة صدق واحدة يستيقظ فيها، فيعيد ترتيب عمره قبل أن تُطوى صحيفته، ويحوّل ما بقي من الزمن من غفلةٍ مستهلكةٍ إلى طريقٍ واعٍ نحو الله.

الفصل الثاني

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ

بشراً يمشون في الأرض وقلوبهم متصلة بالسماء

بعد أن عرضت السورة اضطراب المكذبين أمام حقيقة الوحي، وردّت على مطالبتهن بآياتٍ حسية تشبه ما أرسل إلى الأمم السابقة، أعادت القضية إلى أصلها الواضح الذي لا يحتاج إلى هذا الضجيج كله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

لم يكن محمد ﷺ بدعاً من الرسل، ولم تكن بشريته طعناً في رسالته؛ فالسماء لم تكن ترسل إلى البشر مخلوقاتٍ لا تشبههم، وإنما كانت تختار من بينهم رجالاً تعرف الأرض خطاهم، وتعرف الأسواق وجوههم، وتعرف البيوت أحزانهم وأفراحهم، ثم تفتح لهم نافذةً إلى الغيب، وتضع في قلوبهم أثقال الرسالة.

كانوا رجالاً؛ أي إن النبوة لم تمح عنهم صفاتهم البشرية، لكنها رفعت هذه البشرية بالوحي. كانوا يجوعون، ولكن الجوع لا يشتري موافقهم. ويخافون، ولكن الخوف لا يقطعهم عن التكليف. ويحزنون، ولكن الحزن لا يطفئ يقينهم. ويمرّون بما يمرّ به الناس، غير أنهم لا يسمحون لما يمرّ بهم أن يحجبهم عن الله.

وهنا تكمن روعة الأنبياء: ليسوا مخلوقاتٍ لم تعرف الضعف، بل بشرٌ عرفوا كيف يصعدون من ضعفهم إلى ربهم. لم يكونوا حجارةً لا تتألم، وإنما قلوبًا امتلأت بالألم ثم بقيت أمينة. ولم يكونوا خارج التجربة الإنسانية، بل بلغوا قمتها؛ لأنهم حملوا الوحي وسط تعب الجسد، وضجيج المجتمع، ووحشة التكذيب، وطول الطريق.

ولهذا كانت حياتهم حجةً عمليةً على إمكان الطاعة. فلو كان الرسول مَلَكًا لقال الإنسان: كيف أقتدي بمن لا يجوع كما أجوع، ولا يغضب كما أغضب، ولا تنازعه الشهوة كما تنازعني؟ أما حين يكون الرسول بشرًا، فإن سيرته تقول: تستطيع البشرية، حين يقودها الوحي، أن ترتفع من تراب الغريزة إلى أفق العبودية.

وقوله: **(نُوحِي إِلَيْهِمْ)** هو الحد الفاصل بين النبي وغيره. هم بشرٌ من جهة الخَلْقَة، لكن الله خصَّهم بالوحي من جهة الاصطفاء. فلا يُرْفَعون إلى مقام الألوهية، ولا يُنْزَل بهم إلى مرتبة العبقريّة البشرية المجردة. من غلا فيهم أخرجهم من بشريتهم، ومن جفاهم جرّدهم من اصطفائهم؛ والقرآن يقيم الميزان: رجالٌ، ولكن الله يوحى إليهم.

ثم يقرر القرآن منهجًا من أعظم مناهج المعرفة:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

إن عدم العلم ليس عيبًا في ذاته؛ إنما العيب أن يتحول الجهل إلى جرأة، وأن يتكلم الإنسان فيما لا يعلم ثم يزهو بصوته. الجهل الذي يعرف صاحبه حدوده بدايةً معرفة، أما الجهل الذي يرتدي ثياب اليقين فهو بابٌ واسع من أبواب الضلال.

قالت الآية: (فَاسْأَلُوا)، لأن السؤال اعتراف بأن الحقيقة أكبر من الفرد، وأن الإنسان مهما اتسعت معارفه يظل محتاجاً إلى غيره. وفي السؤال تواضعٌ يفتح للعقل منافذ النور. المتكبر لا يسأل؛ لأنه يخشى أن يبدو ناقصاً، فيبقى ناقصاً بالفعل. أما طالب الحق فيعلم أن لحظة سؤال صادق خيرٌ من أعوام يقضيها في أسر الوهم.

لكن الآية لم تقل: فاسألوا أي أحد، بل قالت: (أَهْلَ الذِّكْرِ)؛ لأن الحقائق لا تؤخذ من كثرة المتحدثين، وإنما من أهل العلم بها. وفي كل شأن أهله، وفي كل معرفة أبوابها. وليس من الإنصاف أن تُستفتى الشهرة في موضع العلم، أو يُجعل ارتفاع الصوت دليلاً على الرسوخ. وفي زمان تتزاحم فيه الآراء على الشاشات، ويستطيع كل إنسان أن ينشر ظنه في هيئة حقيقة، تصبح هذه الآية ميزان نجاة: من أهل هذا العلم؟ من عرف أصوله؟ من شهد له الرسوخ؟ من يتحمل مسؤولية ما يقول أمام الله، لا أمام الجمهور وحده؟

فليست كل معلومة ذكراً، ولا كل متحدث من أهل الذكر، ولا كل جواب سريع ثمرة علم. قد يكون الجواب المختصر وراءه عمر من التحقيق، وقد تكون الخطبة الطويلة فراغاً يتزين بالمصطلحات.

ثم تعود السورة إلى بشرية الرسل، فتؤكد لها من ناحية أخرى:

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ).

لم يكونوا أجسادًا مستغنية عن الطعام، ولم يكونوا خالدين لا يذوقون الموت. كانت لهم حاجات الجسد، وكانوا يسيرون نحو الأجل كما يسير كل إنسان. لكن الحاجة لم تُسقط مقامهم، والفناء الجسدي لم يُبطل رسالتهم.

إن الطعام هنا علامة على الافتقار؛ فمن يأكل يحتاج، ومن يحتاج لا يكون إلهاً. وفي هذه الكلمات القليلة يهدم القرآن كل غلوّ يرفع الأنبياء فوق عبوديتهم. أعظم ما فيهم أنهم عبيدٌ لله على تمام العبودية، لا أنهم خرجوا عن حدود البشر.

وكانوا يأكلون الطعام، لكنهم لم يعيشوا للطعام. أخذوا من الدنيا ما يقيم الجسد، ولم يجعلوا إقامة الجسد غاية الوجود. وهذه هي المسافة بين الإنسان الرباني والإنسان المادي: كلاهما يأكل، لكن أحدهما يأكل ليعيش لرسالته، والآخر يعيش ليأكل ويستهلك ويجمع.

ولم يكونوا خالدين؛ لأن خلود الرسالة لا يقتضي خلود حاملها. يموت النبي وتبقى الكلمة التي جاء بها، ويسكن جسده التراب، لكن النور الذي أودع في الوحي يواصل رحلته بين الأجيال. وهكذا يعلمنا الله ألا نربط الحق ببقاء الأشخاص؛ فالأشخاص يمضون، أما الحق فلا يموت بموت دعائه.

كم من إنسان ظن أن مشروع الخير سينتهي برحيله، وأن العالم لا يستطيع أن يواصل الطريق من دونه! لكن مواكب الأنبياء تعلمنا أن صاحب الرسالة الحق لا يبني الناس حول ذاته، بل بينهم حول المبدأ الذي يبقى بعد أن يغيب.

ثم تختصر السورة الطريق كله بين الوعد والنجاة:

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ).

ما أبهى هذه العبارة: (صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ).

يمتد البلاء حتى يظن الناظر أن الوعد بعيد، وتتراكم أسباب الأرض في جهة الباطل، ويقف المؤمنون قلةً مستضعفة، ثم تأتي اللحظة التي ينكشف فيها أن كل تأخير كان جزءًا من الطريق إلى الوفاء.

إن الله لا يخلف وعده، لكننا قد نخطئ في توقيته وصورته. نريد النصر سريعًا، ويريده الله ناضجًا. نريده إعفاءً من الألم، ويريده الله ميلادًا من خلال الألم. نريده على الهيئة التي تخيلناها، بينما تختار الحكمة له صورةً أبقى أثرًا وأعظم خيرًا.

انتظر نوح طويلًا، حتى صار الانتظار في أعين قومه مدعاةً للسخرية؛ ثم جاء الماء يحمل صدق الوعد. وألقي إبراهيم في النار، حتى لم يبق بينه وبين الاحتراق في حساب البشر شيء؛ فجاء الأمر الإلهي أبرد من النار وأصدق من الأسباب. وخرج موسى وقومه والبحر أمامهم والعدو خلفهم؛ ثم انشق الطريق في الموضع الذي لم ير الناس فيه إلا الهلاك.

كأن النجاة في قصص الأنبياء كثيرًا ما وُلدت من قلب الاستحالة،
ليعلم المؤمن أن الوعد لا يستمد قدرته من الأسباب، بل من قائله.

قال تعالى: **(فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ)؛** فالنجاة ليست للنبي وحده، بل
تمتد إلى من آمن معه وسار على طريقه. من ربط مصيره بالوحي
ألحقه الله بقافلة النجاة، ولو كان في مقاييس الدنيا مجهولًا ضعيفًا. وما
أجمل أن يكون المرء ممن تشملهم هذه الواو الصغيرة: **(وَمَنْ نَشَاءُ)؛**
أن يُذكر في السماء بين الناجين، وإن لم يعرف أهل الأرض اسمه.
وفي الجهة المقابلة:

(وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ).

الإسراف هنا ليس مجرد تجاوز في المال، بل تجاوز للحد في
الكفر والظلم والعناد. إن المسرف يعيش كأن لا حدّ يوقفه: يستهلك
النعم بلا شكر، ويستعمل القوة بلا عدل، ويؤذي بلا وخز ضمير،
ويؤجل التوبة كأنه يملك الزمن. فإذا استمر في تجاوز الحدود جاءه
الحد الذي لا يستطيع تجاوزه.

والإسراف هو أن يعطي الإنسان الشيء أكثر مما يستحق من قلبه
وعمره: يعطي الدنيا كل همّه، ويعطي الشهوة كل طاقته، ويعطي
خصومه كل تفكيره، ويترك لله فضلة الوقت والمشاعر. وقد لا يبدو
هذا في أعين الناس تبذيرًا، لكنه أشد أنواع تبديد الحياة؛ لأن المال إذا
ضاع قد يعود، أما العمر إذا أنفق في غير الغاية فلا يُسترد.

ثم تواجه السورة العرب، وتواجه من خلالهم كل أمة، بحقيقة الكتاب الذي أنزل إليها:

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

(فِيهِ ذِكْرُكُمْ)؛ عبارة واسعة كأنها مرآة تنفتح أمام الإنسان والأمة. في هذا الكتاب شرفكم، إذا حملتموه بحق. وفيه تذكيركم بما نسيتموه من أصل خلقتكم ومصيركم. وفيه حديثٌ عنكم، عن أمراض نفوسكم، ومداخل ضعفكم، وإمكانات صعودكم. وفيه المنهج الذي يصنع لكم ذكراً في الأرض وقبولاً في السماء.

كان العرب قبائل متفرقة، تعيش على هامش القوى الكبرى، ثم حملوا هذا الكتاب فصار لهم ذكرٌ يملأ الآفاق. لم يرفعهم الذهب الذي اكتشفوه، ولا العدد الذي امتلكوه، ولا الفلسفة التي ابتدعوها؛ بل رفعهم الوحي حين تحول من نص يتلونه إلى روحٍ تتحرك في أخلاقهم وعمرانهم.

وليس معنى أن في القرآن ذكرنا أن نرفع المصاحف فوق الرؤوس ونخفض أحكامها عن الحياة، أو أن نتزين بالانتساب إليه ثم نستمد موازيننا من غيره. فالكتاب لا يصنع مجد أمة تهجره، ولو كتبت آياته على جدرانها. إنما يصنع ذكر الأمة حين يصبح عقلها الذي تبصر به، وضميرها الذي تحاكم به، وقيمتها التي لا تبيعها في سوق المصالح.

وفي قوله: (إِلَيْكُمْ) تحميلٌ للمسؤولية. لقد انتهت المسافة بينكم وبين الحجة؛ فالكتاب نزل إليكم، والنداء بلغكم، والنور صار بين أيديكم. لا يستطيع من يحمل المصباح أن يعتذر بالظلام.

ثم جاء السؤال الذي لا يطلب جوابًا باللسان، بل انقلابًا في الوعي:
(أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

لم يقل: أفلا تسمعون، لأنهم سمعوا. ولم يقل: أفلا تقرأون، فقد يقرأون. وإنما استدعى العقل الذي يصل بين الوحي والواقع، وبين المقدمة ونتيجتها، وبين العمل وعاقبته.

العقل في القرآن ليس آلة للجدل ولا مستودعًا للمعلومات، بل قوة تهدي صاحبها إلى وضع الأشياء في مراتبها الصحيحة. العاقل من عرف أن الفاني لا يستحق أن يضحّي من أجله بالباقي، وأن المخلوق لا يُطاع في معصية الخالق، وأن الحياة القصيرة لا ينبغي أن تهزم المصير الطويل.

كم من ذكيٍّ أحسن تدبير دنياه، ثم أضاع نفسه! وكم من إنسان استطاع أن يحسب أرباح تجارته بدقة، لكنه لم يحسب خسارته الأخلاقية! القرآن لا ينفي عنه مهارة التفكير، لكنه يسأله عن عقل يرى الصورة كلها، لا الجزء القريب منها.

إن هذه الآيات تبني معنى النبوة في الضمير بناءً كاملاً:
فالرسل بشر، كي نستطيع الاقتداء بهم.

وهم موحّى إليهم، كي نأخذ عنهم طريق السماء.

وهم غير خالدين، كي يبقى تعلقنا بالرسالة لا بالأجساد.

وقد صدقهم الله وعده، كي لا نهزم أمام طول الطريق.

وأنزل إلينا كتابًا فيه ذكرنا، كيلا نعيش بلا هوية ولا ميزان.

وهكذا لا تعود قصص الأنبياء حكاياتٍ نقرأها لنتعجب مما حدث، بل مرايا نرى فيها ما ينبغي أن نصير إليه. إنهم لم يأتوا ليزيدوا معارفنا بالماضي فقط، بل ليعيدوا تشكيل حاضرنّا. كل واحد منهم يقول للإنسان: تستطيع أن تكون عبدًا لله وسط الفتنة، وأن تحمل الحق وسط التكذيب، وأن تنتظر الوعد حين تتأخر علاماته، وأن تبقى وفياً للسماء وأنت تمشي بقدمين من طين على هذه الأرض.

فالنبوة هي التقاء السماء بالبشر، والقرآن هو بقاء هذا اللقاء في أيدينا. وما بقي علينا إلا أن نجيب عن السؤال الذي ختمت به الآية:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

الفصل الثالث

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ

حين يسقط الطغاة وتبقى البيوت شاهدةً عليهم

بعد أن ذكّرت السورة الناس بالكتاب الذي فيه شرفهم وذكرهم، فتحت أمامهم صفحةً أخرى من صفحات التاريخ؛ لا التاريخ الذي يحصي السنوات، بل التاريخ الذي يكشف سنن الله في صعود الأمم وسقوطها:

(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ).

لم تقل الآية: أهلكنا فحسب، وإنما قالت: (قَصَمْنَا). والقسم كسرٌ شديد لا يبقى للشيء ما كان له من تماسك وقوة. كأن القرية الظالمة كانت عودًا يابسًا ظنّ نفسه صلبًا، فلما نزل به أمر الله انكسر انكسارًا لم تُجد معه زخارف القوة ولا أبراج السلطان.

و(كَمْ) هنا تفتح خلف اللفظ مقابر لا تُحصى، ومدنًا كانت تضج بالحياة ثم دخلت في صمت التاريخ. كم من قرية رفع أهلها بنيانها، وشيّدوا قصورها، وأقاموا حول سلطانهم الأسوار، وظنوا أن ما بأيديهم قد خرج عن دائرة الزوال! ثم مرت عليهم سنة الله، فأصبحوا خبرًا بعد أن كانوا يصنعون الأخبار، وأثرا منسياً بعد أن كانوا يتوهمون أن الأرض لا تدور إلا بأمرهم.

والمقصود بالقرية هنا أهلها؛ لأن الجدران لا تظلم، والطرق لا تظلم، والحجارة لا تكفر. إنما الإنسان هو الذي يحول المكان إلى وطنٍ للعدل أو مصنعٍ للظلم. فإذا استقر الظلم في العلاقات والمؤسسات والضمائر، حتى صار نظامًا عامًّا لا حادثةً عابرة، أصبح المجتمع مهيبًا للقسم، وإن بدا من الخارج شديد التماسك.

فالقري لا تُهلك لأنها ضعيفة ماديًّا، بل لأنها تصبح ظالمة أخلاقيًّا. وقد تبلغ الحضارة ذروة عمرانها وهي في الحقيقة تنتهياً للسقوط؛ لأن البناء الذي لا تسنده العدالة يحمل في داخله معاول هدمه.

حين يُدَلَّ الشريف، ويُرفع الفاسد، وتباع الحقوق، ويُحمى الظالم، وتتحول القوة من حراسة الإنسان إلى افتراسه، تكون القرية قد شرعت في كتابة نهايتها، ولو ازدحمت شوارعها بالمظاهر البراقة. فليست الحضارة ارتفاع الأبنية وحده؛ الحضارة أن يأمن الضعيف من القوي، وأن يجد المظلوم بابًا للإنصاف، وأن تظل كرامة الإنسان أعلى من شهية السلطة.

ثم تقول الآية:

(وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ).

ما أقصر المسافة في القرآن بين قومٍ يظنون أنهم نهاية التاريخ، وقومٍ آخرين يرثون مواضعهم!

سقط أولئك، وجاء غيرهم. خلت الدور من وجوه كانت تملؤها، ثم
فُتحت أبوابها لأقدامٍ جديدة. وهكذا تقول الآية للطغاة: لستم ضرورةً
كونية، ولا يتوقف استمرار العالم على بقائكم. إن الله قادر أن يذهب
بكم، ثم ينشئ بعدكم من يعمر الأرض.

وتقول للأمم كلها: وراثته المكان ليست شهادةً على الاستحقاق
الدائم. أن تراث أرضاً كان فيها غيرك لا يعني أنك صرت بمنأى عن
سنته. قد تمشي فوق أطلال قوم ثم تكرر ظلمهم، فتغدو أنت أطلالاً
يمشي فوقها آخرون.

إن التاريخ لا يمنح أحداً حصانةً أبدية. كل جيل يدخل الدنيا مؤتمناً،
لا مالكاً مطلقاً؛ تُسلم إليه الأرض زماناً محدوداً، ثم يُسأل: ماذا صنع
بها؟ هل ترك فيها عدلاً أم جراحاً؟ هل جعل سلطانه مظلةً للناس أم
سيفاً عليهم؟ ثم تنتهي مدة الاستخلاف، وينتقل المشهد إلى قوم آخرين.

وهذه الآية تحرر المؤمن من سحر القوة الظاهرة. فالطاغية قد يبدو
له راسخاً لا يزول، لكن القرآن يضعه أمام معرض طويل من القوى
التي زالت. من كان يظن أن قوماً آخرين سيأتون بعدهم، يسكنون
بيوتهم، ويتحدثون عنهم بصيغة الماضي؟ كانوا يرون أنفسهم حاضراً
أبدياً، ثم صاروا صفحةً يطويها قارئ.

ليس الباقي هو الأقوى جنداً، بل الأصدق اتصالاً بسنن الله.

ثم تصوّر السورة لحظة الإفاقة المتأخرة:

(فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ).

إنهم لم يؤمنوا حين جاءت البراهين، ولم يرجعوا حين تتابعت النذر، لكنهم أحسّوا حين مسّهم البأس. وهذه طبيعة النفس التي يسيطر عليها الغرور: لا ترى الحقيقة حتى تتحول من خبرٍ تسمعه إلى ألمٍ يطرق جسدها.

طوال زمن الإمهال كانوا يظنون أن تحذير الأنبياء كلام بعيد، وأن الأيام ستظل تسير وفق أهوائهم. فلما لاح العذاب، تحولت السخرية إلى رعب، والسكون الواصل إلى ركض مضطرب.

واختيار كلمة (يَرْكُضُونَ) يرسم المشهد حيًّا؛ أقدام تتخطب، ووجوه مذعورة، وأناس يبحثون عن مخرج بعد أن أغلقت مخرج النجاة التي كانت مفتوحةً بالتوبة.

كم من إنسان يركض في آخر الطريق هربًا من نتيجة صنعها بيديه! لم يركض من الظلم حين كان قادرًا على تركه، لكنه ركض من عاقبته حين لم يعد قادرًا على دفعها. لم يفرّ إلى الله في زمن المهلة، فلما جاء الأمر حاول الفرار من الله، وأنّى له ذلك؟

إن النجاة لا تبدأ بالركض عند نزول العقوبة، بل بالتوقف عن الظلم قبل نزولها. وكان باب التوبة أوسع من كل الطرق التي بحثوا عنها، لكنهم أعرضوا عنه حين كان مفتوحًا، ثم طلبوا الأبواب كلها بعدما أغلق.

ويأتِيهم النداء مشبعًا بالتقرُّيع:

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ).

لا تركضوا! إلى أين؟

ارجعوا إلى ما أترفتم فيه؛ إلى تلك النعمة التي لم تشكروها، وإلى القصور التي ظننتموها حصونًا، وإلى المقاعد التي كنتم تجلسون عليها فتأمرون وتتهنون، وإلى الحياة التي خدعتكم حتى توهتم أنكم أصحابها لا ضيوف فيها.

(لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)؛ ارجعوا لعل الخدم يسألونكم ماذا تأمرون، ولعل الناس يعودون إلى أبوابكم يستأذنون، ولعل مظاهر السيادة التي أدمنت نفوسكم طعمها تمنع عنكم ما نزل. لكنه تهكم يكشف هوان ما كانوا يعظمونه؛ فقد انتهى زمن السؤال منهم، وبدأ زمن السؤال عنهم.

كانوا بالأمس يُسألون لأنهم أهل السلطة: ماذا تريدون؟ كيف نحصل على رضاكم؟ واليوم يُسألون أمام الله: ماذا صنعتُم بالسلطة؟ من ظلمتم؟ وأي حق أضعتم؟ وأي صوت أسكتكم؟

ما أسرع انقلاب الجهات! من كان الناس يقفون على بابه، يقف اليوم عند باب الحساب. ومن كانت إشارته قانونًا لا يُراجع، صار عمله ملفًا لا يستطيع حذف حرفٍ منه.

أما الترف الذي أُمرُوا بالرجوع إليه، فليس مجرد سعة العيش. القرآن لا يذم النعمة لذاتها، وإنما يذم النعمة حين تُنسى المنعم، وتخدّر الضمير، وتحوّل الإنسان إلى كائن يظن أن راحته الخاصة أهم من آلام الناس.

الترف المذموم أن يعيش المرء في بحبوحته كأن صرخات المظلومين لا تعنيه، وأن يبني هدوء بيته فوق اضطراب بيوت الآخرين، وأن يرى في النعمة دليلاً على رضاه عن نفسه، لا أمانة تستوجب الشكر. وحين ينفصل الثراء عن الرحمة، تصبح الوسائد الناعمة ستائر تحجب الإنسان عن الحقيقة.

وكم من مجتمع لم يهلكه الفقر، بل أهلكه الترف حين جعل أصحابه عاجزين عن سماع الحق؛ لأن الحق يطلب منهم أن يتنازلوا عن امتيازات بُنيت على ظلم الآخرين.

وعند انكشاف النهاية لم يبق لهم إلا الاعتراف:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ).

ما كان أسهل هذه الكلمة لو قيلت في زمن المهلة مقرونةً بتوبة! لكنها جاءت الآن لا لتفتح باب الرجوع، بل لتسجل عليهم اعترافاً بعد فوات أوانه.

لم يقولوا: كنا مخطئين فقط، بل قالوا: **(كُنَّا ظَالِمِينَ)**. لقد سقطت الأفضة والتبريرات. انتهت اللغة التي كانت تمنح الظلم أسماء ناعمة: مصلحة عامة، ضرورة سياسية، حماية النظام، حفظ المكانة، مقتضيات الواقع. وعند حضور بأس الله عاد الفعل إلى اسمه الحقيقي: ظلم.

في الدنيا يملك الإنسان مساحة واسعة لتجميل قبحه؛ يسمى الجبن حكمة، والبخل تدبيراً، والاستعلاء هيبة، والانتقام عدالة، والتعصب وفاءً، والسكوت عن الظلم حياداً. لكن في لحظة الحقيقة تسقط صناعة الأسماء، ويرى كل شيء بوجهه الذي كان له عند الله.

إن قولهم: **(يَا وَيْلَنَا)** ليس توبةً مكتملة، بل صرخة نفسٍ رأت المصير ولم تعد تملك القدرة على تغييره. والندم نوعان: ندماً يوقظك ما دام الطريق مفتوحاً، وندماً يحرقك حين لا يبقى طريق. الأول رحمة، والثاني عذاب.

فتوبى لمن استطاع أن يقول: إني كنت من الظالمين، ثم ردّ الحقوق، واستغفر ربه، وأصلح ما أفسد، قبل أن تتحول الكلمة من بداية نجاة إلى خاتمة هلاك.

ثم تَختَمُ السُّورَةَ المَشْهَدَ:

(فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ).

ظل اعترافهم يتردد: يا ويلنا، إنا كنا ظالمين. لكنه صوت لا يغير شيئاً؛ فقد خرج من اللسان بعد أن انتهت مهلة العمل. ثم صاروا (حَصِيدًا)، كزرعٍ مرَّ عليه المنجل فلم يُبق منه ما كان قائماً، وصاروا (خَامِدِينَ)، كالنار التي كانت تتوهج وتلتهم ما حولها، ثم انطفأت ولم يبق منها إلا الرماد.

صورتان تختصران نهاية الطغيان:

كانوا زرعاً منتصباً يتباهى بكثرته، فصاروا حصيداً.

وكانوا ناراً تنتقد سطوةً وعدواناً، فصاروا خامدين.

إن الظلم قد يبدو في لحظة من اللحظات شديد الحياة؛ يتحرك في المؤسسات، ويتحدث عبر المنابر، ويملك السلاح والمال، ويصنع الخوف في القلوب. لكنه في ميزان الله مشروع رماد مؤجل. يحمل في داخله قابلية الخمود، وإن علت ألسنة ناره.

والخمود نهاية تناسب الصخب الذي أحدثه الظالمون. كم ملؤوا الدنيا أصواتاً! وكم أشغلوا الناس بأسمائهم وخطبهم وقوتهم! ثم انتهوا إلى سكون كامل. لم تعد لهم أوامر تُطاع، ولا عيون يخشاها الناس، ولا أيدٍ توقع العقاب. بقيت آثارهم شاهدةً على أن الصوت الذي لا يسنده الحق مهما ارتفع محكومٌ عليه بالصمت.

وتقف هذه الآيات بين الماضي والحاضر لا لترَوِّع القلب وحده، بل لتمنحه معياراً يقرأ به العالم.

فالقوة ليست دليل نجاة، والإمهال ليس علامة رضا، والازدهار المادي لا يحمي مجتمعاً نخر الظلم ضميره. قد تبدو القرية آمنةً لأنها لم تُعاقب بعد، بينما تكون في الحقيقة قد قطعت شوطاً بعيداً نحو القضم.

لكن السنن لا تعمل وفق استعجال البشر. قد يتمنى المظلوم أن يرى نهاية الظالم الآن، بينما تؤخر الحكمة اللحظة إلى أجلها المقدر. وهذا التأخير لا ينبغي أن يورث المؤمن شكاً، بل يجب أن يورث الظالم خوفاً؛ لأن كل يوم من الإمهال ليس نسياناً، وإنما فرصة للتوبة أو زيادة في الحجة.

إن الله لا يقضم القرى لأنها أخطأت مرة، فالبشر كلهم أهل خطأ، ولكن القضم يأتي حين يتحول الخطأ إلى هوية، والظلم إلى نظام، والعناد إلى قرار جماعي، والإصلاح إلى جريمة يحاربها المجتمع.

وإذا أرادت أمة أن تحمي بقاءها، فلن تحميه بكثرة الأسوار وحدها، وإنما بإقامة العدل داخلها. العدل هو الحصن الذي لا تراه العيون، لكنه أشد من الحجارة؛ والظلم هو الشق الخفي في جدار الدولة، وقد يبدو صغيراً حتى تأتي لحظة الانهيار.

وتهمس الآيات لكل فرد: لا تنتظر أن تحسّ البأس كي تعترف. لا توجل مراجعة نفسك إلى اللحظة التي تصبح فيها المراجعة عاجزة عن الإصلاح. فما تزال أمامك فرصة أن تعود، وأن ترد المظلمة، وأن تُطفئ نار الكبر، وأن تحصّد من قلبك شوك العدوان قبل أن تصبح أنت حصيدًا.

إن أعظم نعمة ليست أن يُمهّل الإنسان، بل أن يفهم معنى إهماله. فقد تطول الأيام بطاغية فتكون استدراجًا، وتقتصر بمؤمن فتكون ارتقاءً. ليست العبرة بعدد الأيام، بل بما يكتبه الإنسان فيها قبل أن يأتي اليوم الذي لا يبقى فيه إلا ما كتب.

فالقرى الظالمة تسقط، وإن بدت راسخة؛ والقصور تخلو، وإن ازدهمت بالحاشية؛ والطغاة يخمدون، وإن ملؤوا الأرض نارا. أما العدل، فيبقى كلمةً مضيئةً في ذاكرة الزمن، وشهادةً لصاحبه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الفصل الرابع

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَاعِبِينَ

جَدِيَّةِ الوجود وسجود الكون الذي لا يفتر

بعد أن رسمت السورة مشهد القرى الظالمة وهي تتحول من صخب السلطان إلى خمود الهلاك، ارتفعت بالبصر من أطلال المدن إلى رحابة الكون؛ لتكشف أن سقوط الظالمين ليس حادثاً منفصلة، بل أثرٌ من آثار الجدية التي قام عليها الوجود كله:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ).

هذه الآية ليست خبراً عن الكون وحده، بل حكمٌ على الحياة، وتحديدٌ لموقع الإنسان فيها. فما دام الخالق لم يخلق السماوات والأرض لعباً، فلا يمكن أن تكون حياة الإنسان فيهما عبثاً. وما دام البناء قد قام على الحكمة، فلا بد أن يكون للوجود معنى، وللتكليف غاية، وللأعمال عواقب، وللخير والشر نهايةٌ تكشف الفرق بينهما.

انظر إلى السماء: اتساعٌ لا تُدرك أطرافه، وأجرامٌ تجري في مساراتها، ونواميس لا تضطرب، وتوازنات لو اختل منها شيء يسير لتبدل وجه الحياة. وانظر إلى الأرض: ماءٌ ينزل بقدر، وبذرةٌ تنشق في ظلمة التراب، وخليّةٌ تحمل سرّاً من أسرار الخلق، وتعاقبُ بين الليل والنهار، وموتٌ يفتح الطريق لحياة جديدة. هل يشبه كل هذا لعبةً بغير غاية؟

إن اللعب فعلٌ لا يراد لذاته معنى وراءه، أما هذا الكون فكل ذرة فيه تشير إلى تقدير، وكل نظام يشهد لحكمة، وكل مخلوق يؤدي دوره في شبكة الوجود. حتى الورقة التي تسقط لها موعد ومكان، وحتى الجرح الذي يبرأ تحرسه في الجسد جيوش لا يراها الإنسان.

فكيف يتوهم المرء أن هذا البناء المحكم قد أُعدَّ ليعيش فيه بلا حساب، وأن يُمنح العقل والضمير والإرادة ثم يتساوى في النهاية مع من خانها؟ كيف يكون الكون جاذبًا في كل شيء، ثم تكون الأخلاق وحدها عبثًا، والدماء بلا قيمة، والعدالة بلا موعد؟

إن إنكار الحساب ليس مجرد إنكار ليوم آتٍ؛ إنه اتهام للوجود كله بالعبث. فلو مات الظالم والمظلوم وانتهيا إلى المصير نفسه، ولو ذهبت التضحيات والخيانة إلى الفراغ ذاته، لكانت خلقة الضمير سؤالاً بلا جواب، ونداء العدالة في الفطرة سخريةً من الإنسان. لكن الله منزّه عن العبث؛ ولذلك كانت الآخرة ضرورةً من ضرورات الحكمة، قبل أن تكون خبرًا من أخبار الغيب.

الكون إذاً لم يُخلق لعبًا، لكن الإنسان يستطيع أن يحوّل حياته فيه إلى لعب. لا لأنه يضحك أو يستريح؛ فالراحة حق للنفس، والبهجة نعمة، وإنما لأنه يعيش بلا غاية كبرى، ويتعامل مع الوسائل كأنها نهايات.

قد يمضي عمره كله يجمع ما سيترك، ويبني ما لن يسكن طويلاً، ويتصارع على منزلة لن ترافق جسده إلى القبر، ثم لا يسأل نفسه: لماذا جئت؟ وما الأمانة التي حُمِلتها؟ وأي صورة من نفسي سألقى الله بها؟

ليست المأساة أن يستمتع الإنسان بالمباح، وإنما أن يتحول الوجود كله عنده إلى متعة عابرة، وأن يختصر نفسه في جسد يريد المزيد، ومكانة تطلب التصفيق، وأنا متضخمة تتغذى على المقارنة.

الدنيا ليست لعبة، وإن كانت فيها ملاعب كثيرة. وليست لهواً، وإن ازدهمت بما يلهي. إنها موضع عمل وابتلاء وعبور؛ وما فيها من جمال ليس كي نعبده، بل كي نستدل به على الجميل سبحانه، ونشكره عليه، ونحسن استعماله.

إن المؤمن لا يخاصم الحياة، بل يعرف وزنها. يفرح دون أن ينسى، ويحزن دون أن ييأس، ويملك دون أن يُستعبد، ويبنّي وهو يعلم أنه راحل. يعيش فيها بكل مسؤوليته، لكنه لا يسمح لها أن تستولي على معنى وجوده كله.

ثم تقول السورة:

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذُنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ).

تعالى الله عن اللهو والعبث، وتعالى عن كل ما ينسب إليه الجاهلون من صاحبة أو ولد أو شريك. فالافتقار إلى اللهو من صفات الناقص الذي يحتاج إلى ما يقطع به مله أو يتم به نقصه، أما الله فهو الغني الكامل، لا يلحقه ملل، ولا يعترضه نقص، ولا يحتاج إلى شيء من خلقه.

والآية تنفي تلك التصورات الوثنية التي قاست الغيب على عالم الإنسان، ثم نسبت إلى الله ما تعرفه من حاجات البشر. فالإنسان يطلب صاحب لضعفه، والولد لامتداد ذكره أو عونه، والله سبحانه غني عن العالمين؛ كان قبل الخلق كاملاً، ولا يزيد ملكه بطاعة الطائعين، ولا ينقص بمعصية العاصين.

كل تصور عن الله لا يبدأ من تنزيهه يوشك أن يصنع وثناً ذهنياً، وإن لم ينحته من حجر. ولذلك يربي القرآن العقل على ألا يقيس الخالق بالمخلوق؛ فالله ليس كمثله شيء، وكل ما خطر ببال الإنسان من صورة فإله منزّه عنها.

وقوله: (مِنْ لَدُنَّا) يزيد الحجة ظهوراً؛ فلو كان هذا مما يليق — وهو لا يليق سبحانه — لما اتُخذ من عالم البشر، ولا كان أحدٌ من الخلق ندّاً لله أو جزءاً من ألوهيته. لكنها صياغة تقطع أصل الوهم، ثم تترك العقل أمام بطلان ما اخترعه المشركون.

ثم تنتقل السورة من نفي اللعب إلى بيان حقيقة الصراع بين الحق والباطل:

(بَلْ نَقْضُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ).

ليس الكون مسرحاً محايداً تتساوى فيه الحقيقة والكذب؛ إنما فيه حق ثابت يواجه باطلاً طارئاً. والحق في الآية لا يتقدم متردداً، بل يُقذف به قذفاً، فيصيب الباطل في دماغه، فيحطم مركز زيفه، فإذا هو زاهق.

ما أبلغ قوله: (فَيَدْمَغُهُ). لم يقل: يلامسه أو يضعفه، بل يصيب دماغه؛ الموضوع الذي يدبّر منه الباطل حيله، ويصنع سردياته، ويزخرف أكاذيبه. إن الحق لا يكتفي بتهذيب أطراف الباطل، وإنما يكشف أصل الفكرة التي أقام عليها سلطانه.

قد يملك الباطل أجهزةً ضخمةً للدعاية، ويكرر نفسه حتى يظنه الناس حقيقة، ويمنح ظلمه أسماءً براقة، لكن كلمة حق واحدة قد تنفذ إلى قلب بنيانه فتفضحه. فالزيف يحتاج إلى جهد دائم كي يبقى؛ إلى أصوات تروّجه، وخوف يحميه، وجهل يغذيه. أما الحق ففيه قوة البقاء من ذاته؛ لأنه متصل بواقع الأشياء وبحكمة الله.

والباطل مهما تضخم زاهق. هذه صفته الأصلية، وإن تأخر زهوقه في أعيننا. إنه يشبه فقاعةً تعكس ألوانًا كثيرة، لكنها تحمل في داخلها هشاشتها. وقد يشبه ليلاً طال حتى ظن الخائفون أنه أبدي، لكنه لا يملك أن يمنع الفجر من أن يكون فجرًا.

غير أن زهوق الباطل لا يعني أن المؤمن يقف متفرجًا ينتظر؛ فقد قال الله: (نَفْثُ بِالْحَقِّ)، والحق يحتاج في الأرض إلى قلوب تحمله وألسنة تنطق به ومواقف تجسده. حين يصمت أهل الحق، لا يتحول الباطل إلى حق، لكنه يتمادى في المساحة التي أخلاها الصامتون.

وأقوى قذف بالحق ليس كلمةً تقال فحسب، بل نموذجًا يُرى: عدلٌ يفضح الظلم، وأمانةٌ تكشف الخيانة، وعلمٌ يبدد الجهل، وثباتٌ يهزم التخويف، ورحمةٌ تسقط دعوى الباطل أن القوة لا تكون إلا قسوة.

ثم يقول تعالى:

(وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ).

إنهم يصفون الله بما لا يليق به، وينسبون إليه الولد والشريك، ويصفون الوحي بالسحر، والرسول بالافتراء. والكلمات عند الله ليست هواءً يذوب بمجرد أن يخرج من الفم؛ إنها أفعال أخلاقية، تحمل صدق صاحبها أو عدوانه.

قد يستهين الإنسان بما يصف، ويظن أن المسألة مجرد رأي، لكن الكلام في الله والدين والناس أمانة. كم من كلمة شوّهت حقاً، وكم من وصفٍ ظالم اغتال سمعة بريء، وكم من مصطلح صاغه الباطل ليجعل الفضيلة تهمة والرذيلة تقدماً!

في ميزان القرآن، تسمية الأشياء جزء من الصراع عليها. فإذا استطاع الباطل أن يمنح الخيانة اسم الحكمة، والذل اسم الواقعية، والظلم اسم الحزم، بدأ في تغيير وعي الناس قبل تغيير واقعهم. ولهذا يقذف الحق على الباطل فيعيد للأشياء أسماءها، ويزيل عنها مساحيق اللغة.

ثم تعود السورة إلى ملكوت الله:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٥٨﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ).

(وَلَهُ)؛ كلمتان تردان الوجود كله إلى ماله. له مَنْ في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا. ليس أحد خارج سلطانه، حتى من عصاه؛ فالعاصي لا يخرج بمعصيته من ملك الله، وإنما يستعمل ما وهبه الله في مخالفة أمره. يتنفس بهوائه، ويتحرك بقوته، ويعيش في أرضه، ثم يعصيه تحت سمائه.

إنها مفارقة موجعة: أن يتقلب الإنسان في نعم الله ثم يستخدم النعمة حجابًا عن المنعم؛ يرى لأنه وهبه البصر، ثم ينظر إلى الحرام. وينطق لأنه وهبه اللسان، ثم يجحده به. ويملك قلبًا خلقه الله، ثم يملؤه بمحبة ما يسخطه.

ومع ذلك لا تنقص المعصية من ملك الله شيئًا؛ فله من في السماوات والأرض، والكون من حول الإنسان مملوء بالعبادة.

(وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ).

الملائكة، مع قربهم وطهارتهم، لا يرون العبادة دون مقامهم، بينما يستكبر عنها إنسان خُلِقَ من تراب! وما أعجب الكبر حين يسكن المخلوق الضعيف: يحتاج إلى الله في كل نبضة، ثم يتعامل مع السجود كأنه انتقاص من كرامته.

مع أن السجود لله ليس إهدارًا للكرامة، بل تحرير لها؛ لأن الرأس الذي لا ينحني لله سينحني لشيء أدنى منه: لمال أو شهوة أو جمهور أو سلطان. الإنسان عابدٌ بطبيعته؛ فإن لم يعبد الله عبد هواه، وإن لم يخضع للحق خضع لما يخاف فقداه.

والعبودية لله وحدها تردّ للإنسان حريته. حين يقول: الله أكبر، فإنه لا يردد كلمة تعبدية فقط، بل يعلن أن كل ما سواه أصغر من أن يملك قلبه، وأن تهديد البشر لا يعلو فوق أمر الله، وأن إغراء الدنيا لا يساوي رضاه.

(وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ).

لا يتعبون ولا ينقطعون ولا يعيون من العبادة؛ لأن العبادة في عالم الطهر ليست حملاً ثقیلاً، بل طبيعةً منسجمة مع الحقيقة. وإنما تنقل العبادة على الإنسان حين يبتعد قلبه عن معناها، فيرى الصلاة حركات لا لقاءً، ويرى الذكر ألفاظاً لا حياة، ويرى التكليف قيوداً لا طريق نجاة.

كلما عرف القلب ربّه، خفّت عليه طاعته. فالمحبة تحمل ما تعجز عنه القوة المجردة. والذي يذهب إلى الصلاة خوفاً من اللوم قد يستثقلها، أما الذي يذهب إليها لأنه أرهفته الدنيا ويريد أن يضع قلبه بين يدي الله، فإنه يجد فيها راحته.

الفتور طبيعة بشرية، ولذلك لم يطالبنا الله أن نكون ملائكة، لكنه دلّنا على أفق الملائكة كي نستعيد منه وجهتنا كلما فترنا. لسنا مأمورين ألا نتعب أبداً، بل ألا نجعل التعب نهاية الطريق. وقد يفتر الجسد ويبقى القلب مشتاقاً، وقد تضعف الهمة ثم ينهضها صدق الاستعانة.

ثم يقول: **(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ).**

بينما ينام البشر ويستيقظون، ويتذكرون وينسون، ويطيعون ثم يقصرون، يمضي التسبيح في ملكوت الله لا ينقطع. الليل عند الملائكة تسبيح، والنهار تسبيح؛ وكأن الكون كله نفسٌ طويل من التنزيه، لا تتوقف ذبذباته وإن غفل الإنسان عنها.

وما التسبيح إلا أن تنزه الله عن كل نقص، وأن تراه في كماله الذي يليق به، وأن تنزه أفعاله عن العبث، وحكمه عن الظلم، ووعده عن الخُلف، وعلمه عن الغياب.

حين يقول المؤمن: سبحان الله، فهو لا يردد لفظاً معزولاً عن حياته؛ بل يطهر تصويره عن ربه. فإذا نزل به ما لا يفهمه، قال بقلبه قبل لسانه: سبحان الله أن يفعل عبثاً. وإذا تأخرت الإجابة قال: سبحان الله أن ينساني. وإذا رأى الظالم ممهلاً قال: سبحان الله أن يضيع الحق عنده. وإذا ضاقت به الأسباب قال: سبحان الله أن تعجز قدرته.

التسبيح هو أن يبقى الله كاملاً في يقينك، حتى حين يعجز عقلك عن إدراك تفاصيل الحكمة.

وتبدو الأرض، في ضوء هذه الآيات، جزيرةً صغيرةً داخل محيط هائل من العبادة. الملائكة يسبحون، والسموات والأرض تسبحان، وكل شيء يسبح بحمده، لكن الإنسان وحده يستطيع أن يختار الغفلة.

وقد يظن العاصي أن تركه العبادة يُنقص من جلال الله، لكن موكب التسبيح لا يتوقف عليه. إنما هو الذي يحرم نفسه من الانضمام إلى لحن الوجود. فحين يذكر الله ينسجم مع الحقيقة الكونية الكبرى، وحين يغفل يصبح نشازًا في عالم كل شيء فيه يدل على ربه.

إن الصلاة ليست صوتًا غريبًا على نظام الكون؛ بل الغفلة هي الغريبة. والسجود ليس انحناءً ضد كرامة الإنسان؛ بل عودةً إلى مكانه الصحيح في الوجود. والتسبيح ليس فرارًا من الحياة؛ بل رؤية الحياة كما هي: خلقًا حكيمًا، وملكا لله، وطريقًا ينتهي إليه.

وهكذا تجمع الآيات بين أمرين قد يبدوان متباعدين: جدية الخلق وبهجة العبادة. فالوجود جادٌّ لأنه ذو غاية، لكن هذه الجدية لا تعني العبوس؛ إنها تمنح كل لحظة قيمة، وكل عمل معنى، وكل ألم أفقًا، وكل طاعة خلودًا.

لم يخلق الله السماء والأرض لاعبين، فلا تجعل عمرك لعبة. ولم يترك الحق عاجزًا أمام الباطل، فلا تيأس من انتصاره. والملائكة لا يفترون عن تسبيحه، فلا ترض أن يكون نصيبك من هذا الكون قلبًا لاهيًا ولسانًا صامتًا عن ذكر الله.

فإذا استيقظ الإنسان لهذه الحقيقة، لم يعد يرى نفسه مخلوقًا ضائعًا في فضاءٍ أعم، بل عبدًا مقصودًا في كونٍ حكيم؛ تحيط به آيات الله، ويعلوه تسبيح السماء، وينتظره حسابٌ يضع كل شيء في موضعه الأخير.

الفصل الخامس

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا

التوحيدُ نظامُ الكونِ وحريةُ الإنسان

بعد أن أخذتنا السورة إلى عالم الملائكة الذين لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يفترون عن تسبيحه، أعادتنا إلى الأرض؛ إلى حيث ينحت الإنسان بيديه معبودًا، ثم يمنحه في وهمه سلطةً لا يملكها:

(أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ).

السؤال يحمل إنكارًا يكشف التناقض كله: أترى هذه الآلهة التي اتخذوها من الأرض تستطيع أن تعيد الموتى إلى الحياة؟

إن الإله الحق هو الذي يهب الحياة أول مرة، ثم ينشر الخلق بعد موتهم. أما آلهتهم فمن الأرض صُنعت، وعلى الأرض وُضعت، ومن حجارتها وأخشابها ومعادنها شُكِلَتْ. هي جزء من العالم، فكيف تصبح ربًّا للعالم؟ وهي خاضعة لقوانين الخلق، فكيف يزعمون أنها تملك سلطان الخالق؟

كان الإنسان يقطع الحجر من الجبل، ثم ينحته بيديه، فإذا فرغ من صنعه خفض أمامه الرأس الذي صنعه. وهنا تبلغ المأساة ذروتها: لا يكتفي الإنسان بأن يضل، بل يصنع بيده ما يضله؛ يمنح الشيء قيمةً لم تكن له، ثم يقع أسيرًا للقيمة التي منحه إياها.

ولا تنتمي الأصنام كلها إلى زمن الحجارة. إن الصنم في جوهره كل ما يصنعه الإنسان أو يرفعه، ثم يمنحه من حق الطاعة والخضوع والمحبة والخوف ما لا ينبغي إلا لله. قد يكون تمثالاً، وقد يكون فكرةً، أو زعيماً، أو حزباً، أو مالاً، أو شهرةً، أو صورةً متضخمةً للذات.

إن الإنسان الحديث قد يسخر من رجلٍ ينحت حجراً ثم يسجد له، لكنه قد يصنع لنفسه صنماً من نظرة الناس، ثم يقضي عمره مستجدياً رضاهم. وقد ينكر قداسة الأوثان القديمة، ثم يمنح السوق سلطاناً يحدد له قيمته، ويمنح الشهرة حق تقرير سعادته، ويمنح القوة حق تسمية الخير والشر.

الصنم ليس ما تتحني أمامه الجبهة فحسب؛ بل ما ينحني أمامه الضمير أيضاً. فإذا عرفت الحق ثم تركته خوفاً من شخص، فقد منحت ذلك الشخص نصيباً من العبودية. وإذا بعث مبدأك كي تحافظ على مكانتك، فقد صارت المكانة صنمك. وإذا لم تستطع أن تخالف هواك مع وضوح أمر الله، فقد تحول الهوى إلى سيدٍ يأمر ويُطاع.

ثم يأتي الامتحان الكاشف: **(هُم يُنْشِرُونَ؟)**

هل تستطيع هذه المعبودات أن تنتشر ميتاً، أو تدفع أجلاً، أو تمنح قلباً نبضته، أو ترد روحاً إذا بلغت الحلقوم؟ إذا كانت تعجز أمام الموت، فكيف تُسلم لها الحياة؟ وكيف يهب الإنسان أعز ما فيه لما لا يستطيع أن يهب له لحظةً واحدة؟

إن الموت أعظم امتحان لكل ادعاء بالقوة. يقف الملوك عند سرير المحتضر عاجزين، وتصمت الأموال، وتراجع الوسائط، وينكشف أن سلطان البشر كله يقف خارج الباب الذي تعبر منه الروح وحدها إلى ربها.

ثم تنتقل السورة من عجز الآلهة إلى استحالة تعددها:

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

إن وحدة النظام الكوني تشير إلى وحدة المدبر. فلو تعددت الآلهة بحق، وتعددت معها الإرادات المستقلة المطلقة، لتنازعت في الخلق والتدبير، ولذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، ولفسد الاتساق الذي تنتظم به السماوات والأرض.

لكننا نرى كونًا تتساند أجزأؤه، لا عوالم متنازعةً ينسف بعضها قوانين بعض. الماء الذي في الخلية هو الماء الذي يخضع للنظام الكوني، والضوء الذي يوقظ الزهرة هو نفسه الذي يسافر في الفضاء، والقوانين التي تحكم أدق الذرات تتصل بالبناء الأعظم للوجود. هذا الانسجام لا يدل على فوضى الإرادات، بل على وحدة الأمر والتقدير.

إن التوحيد ليس فكرةً معزولة عن العالم؛ إنه التفسير الذي يضع الكون كله في نظامٍ واحد. خالق واحد، وإرادة عليا واحدة، ومرجع أخير واحد. وبهذا يتماسك الوجود، وبهذا يتماسك قلب الإنسان أيضًا.

فكما يفسد الكون لو تعددت فيه الآلهة، يفسد القلب حين تتعدد فيه الأرباب. إذا أراد رضا الله ورضا الهوى ورضا الناس جميعاً، تمزق بين الجهات. يأمره الحق بشيء، وتأمره المصلحة العاجلة بنقيضه، ويطلب منه الجمهور صورةً ثالثة، فيصبح موزعاً بين سادة متشاكسين.

التوحيد يوحد الإنسان بعد تفرقه. يمنحه مركزاً واحداً يعود إليه، وميزاناً واحداً يحتكم إليه، ووجهةً لا تتغير بتغير تصفيق الناس. فإذا عرف أن الله وحده هو الإله، تحرر من الحاجة إلى صناعة وجهٍ لكل مجلس، وموقفٍ لكل مصلحة، وحقيقةٍ لكل جمهور.

الموحد لا يعني أنه لا يخاف أو لا يحتاج، بل يعني أن مخاوفه وحاجاته لا تتحول إلى أرباب. قد يخشى الناس، لكنه لا يطيعهم في الباطل. وقد يحب المال، لكنه لا يبيع له ضميره. وقد يطلب القبول، لكنه لا يشتريه بسخط الله.

ومن هنا كان التوحيد أعظم ثورةٍ في داخل الإنسان؛ لأنه يسحب السلطة المطلقة من كل ما سوى الله. يقول للطغاة: أنتم بشر لا أرباب. ويقول للأموال: أنت وسيلة لا قيمة نهائية. ويقول للعادات: أنت ميراث قابل للمراجعة، لا وحيًا مقدسًا. ويقول للنفس: أنت عبدةٌ مأمورة، ولست مركز الوجود.

ثم ينزّه القرآن الله:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

إنه رب العرش؛ رب أعلى المخلوقات وأعظمها، فكيف يُجعل إلى جانبه حجرٌ من الأرض أو مخلوق ضعيف؟ وحين يذكر العرش، يفتح للعقل أفق العظمة؛ ليدرك المسافة بين جلال الخالق وهشاشة ما يعبد المشركون.

(عَمَّا يَصِفُونَ)؛ فالمشكلة بدأت من الوصف الفاسد. تخيلوا الله على قياس البشر، ثم نسبوا إليه الشريك والولد. وكل انحراف في العبادة يسبقه انحراف في المعرفة؛ لأن الإنسان يتعبد وفق تصوره عن معبوده.

فإذا ظن بالله القسوة قنط، وإذا ظن أنه لا يراه تجرأ، وإذا ظن أن رحمته تعني إهمال العدل اغترّ، وإذا ظن أنه يشبه خلقه جسّمه في خياله. ومن هنا كانت معرفة الله بأسمائه وصفاته، على وجه التنزيه اللائق بجلاله، أصلاً لإصلاح القلب كله.

ثم تقول السورة:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ).

الله لا يُسأل سؤال محاسبة واعتراض؛ لأنه المالك الحكيم العليم الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يفعل شيئاً عبثاً، ولا تخفى عليه عاقبة أمر. أما الخلق فهم يُسألون؛ لأنهم عبيد مكلفون، ولأن علمهم ناقص وإرادتهم قابلة للانحراف.

هذه الآية تردّ الإنسان إلى مقامه الحقيقي. فمن أعجب أحواله أنه يقف أمام أفعال الله موقف المحقق الذي يطلب من الحكمة الإلهية أن تبرر نفسها لعقله المحدود، ثم ينسى أنه هو الذي سيُسأل: ماذا فعل بما علم؟ وكيف استعمل ما أُعطي؟ ولماذا ظلم أو كذب أو أعرض؟

كم يكثر الإنسان من سؤال: لماذا فعل الله بي هذا؟ ويقلّ سؤاله: ماذا يريد الله مني في هذا؟ السؤال الأول قد يظل يدور في دائرة الألم، أما الثاني فيفتح باب العبودية والعمل.

وليس معنى الآية منع المؤمن من التأمل في الحكم، أو أن يرفع إلى الله حيرته وألمه؛ فالأنبياء دعوا وسألوا وبثوا شكواهم إلى الله. وإنما المنفي هو سؤال المعارض الذي يجعل عقله معياراً فوق الحكمة الإلهية، فإن لم يفهم تفصيل الفعل اتهم أصله.

المؤمن قد لا يفهم، لكنه يعرف من الذي فعل. وهذه المعرفة تمنحه يقيناً يسبق انكشاف التفاصيل: فعله العليم فلا يمكن أن يكون عن جهل، وفعله الحكيم فلا يمكن أن يكون عبثاً، وفعله الرحيم فلا يمكن أن يخلو من الرحمة، وفعله العدل فلا يمكن أن يشتمل على ظلم.

نحن نرى لحظة واحدة من القصة، والله يعلم القصة كلها. نرى الباب الذي أُغلق، ولا نرى الشر الذي حُجب وراءه. نرى الأمنية التي تأخرت، ولا نرى القلب الذي يُربّى في الانتظار. نرى الفقد في صورته العاجلة، ولا نحيط بما يدّخره الله من عوضٍ وأجر.

والتسليم هنا ليس إلغاءً للعقل، بل اعترافٌ بحدوده. فالعقل الصادق لا يدّعي الإحاطة بما ليس في مقدوره، كما أن العين الحكيمة لا تنكر وجود مدينة لأنها لا تراها من خلف الجبل.

ثم يقول: (وَهُمْ يُسْأَلُونَ).

كل واحد منا سيُسأل. ليس السؤال احتمالاً أدبياً، بل موعداً وجودياً. سنُسأل عن العمر الذي استُهلك، وعن العلم الذي حُمِل، وعن القوة حين قدرت، وعن الموقف حين احتاج الحق إلى كلمة، وعن الصمت حين تحول إلى شراكة في الظلم، وعن النعمة حين جاورت حاجة الآخرين.

فبدل أن يقضي الإنسان عمره يحاكم أقدار الله، عليه أن يستعد للمحاكمة التي تنتظره هو.

ثم تعود السورة إلى نقض الشرك:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ).

(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)؛ فالعقيدة ليست ساحةً للأهواء الموروثة، ولا يكفي أن يقول الإنسان: وجدنا آباءنا على ذلك. حين يتعلق الأمر بالله والغاية والمصير، لا بد من برهان.

إن القرآن لا يخشى السؤال الصادق؛ بل يستدعيه. ولا يطلب من الإنسان أن يطفئ عقله كي يؤمن، بل أن يحرره من أسر التقليد والهوى، ثم ينظر: ما الدليل على أن الله شريكاً؟ وأين أثر هذا الشريك في الخلق؟ وأي وحي صحيح جاء به؟ وأي رسول دعا إليه؟

لا يوجد برهان؛ توجد عادات تحولت بطول الزمن إلى مسلمات، ومصالح احتمت بالمقدسات، وخوف من مراجعة الآباء، ورغبة في الاحتفاظ بآلهة لا تكلف النفس أن تتغير.

والباطل كثيرًا ما يعيش لا بقوة حجته، بل بغيب السؤال. يتوارثه الناس حتى تبدو غرابته مألوفة، فإذا جاء من يقول: (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)، اهتزت البنية كلها.

ثم يقول:

(هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي).

هذا القرآن بين أيدي أمة محمد ﷺ، وكتب الأنبياء السابقين شاهدة من قبل؛ فما الرسالة التي اجتمعوا عليها؟ لم يدعُ نبي إلى عبادة نفسه، ولم يقل رسول للناس: اجعلوني شريكًا لله. إنما جاءت النبوات كلها من نافذة واحدة، تحمل النور نفسه: اعبدوا الله وحده.

تتعدد الشرائع في بعض أحكامها المناسبة لأحوال الأمم، لكن العقيدة واحدة؛ لأن الحقيقة لا تتعدد. كان رب نوح هو رب إبراهيم، ورب موسى هو رب عيسى، وربهم جميعًا هو الذي أرسل محمدًا ﷺ. لم يكن التاريخ ساحةً لآلهة متعاقبة، بل موكبًا من الرسل يعلنون اسم الإله الواحد.

لكن المشكلة:

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ).

لم يقل: لا يعلمون فحسب، بل ربط الجهل بالإعراض. ذلك أن من أعرض عن مصادر الحق طال جهله به، ثم قد يتخذ جهله حجةً على عدم وجوده. يغلق النافذة، ثم يقول: لا أرى الشمس.

وهناك جهل ناتج عن عدم بلوغ المعرفة، وجهل يصنعه صاحبه لأنه لا يريد أن يعرف. الثاني أخطر؛ إذ يختار المرء المصادر التي توافق هواه، ويسخر ممن ينصحه، ويهرب من كل سؤال قد يزعزع عاداته، ثم يعلن بثقة أن الحق غير واضح.

إن الحقيقة تحتاج إلى قلب مستعد، لا إلى عقل قادر وحده. فقد يكون العقل شديد الذكاء، لكن الإعراض يوجه ذكاءه إلى اختراع المبررات بدل اكتشاف الهدى.

ثم تعلن السورة الوحدة الكبرى لموكب النبوة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

ها هي الكلمة التي مشت بها قوافل الأنبياء عبر القرون:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

هذا هو قلب الرسائل. قبل تفاصيل الأحكام، وقبل بناء المجتمع، وقبل إصلاح الاقتصاد والسياسة والأخلاق، لا بد من تحرير مركز الإنسان: من الإله الذي يعبد؟ من صاحب الأمر الأعلى في حياته؟ لمن الحب المطلق والخضوع الأخير؟

ليست لا إله إلا الله عبارة تُقال لتزيين الهوية، بل نفْي وإثبات، هدم وبناء، تحرير وميثاق. تبدأ بلا؛ فتسقط كل ألوهية زائفة، ثم تقول: إلا الله؛ فتجمع القلب بعد تفرقه على ربه الواحد.

إنها تنفي عن السلطان حق الاستعباد، وعن المال حق التحكم، وعن المجتمع حق تحليل الحرام وتحريم الحلال، وعن الهوى حق السيادة، ثم تثبت لله وحده حق العبادة والطاعة المطلقة.

ولهذا ختمت الآية بقوله: (فَاعْبُدُونِ). فالمعرفة التي لا تثمر عبادة ناقصة الأثر. أن تعرف أن الله واحد ثم تتوزع طاعتك بينه وبين هواك، معناه أن التوحيد لم يبلغ بعد موضع السلطان فيك.

والعبادة أوسع من الشعائر، وإن كانت الشعائر قلبها الظاهر. هي أن يكون الله مرجعك حين تختلف المصالح، وغايتك حين تتعدد الطرق، ورقيبك حين تغيب العيون. أن تصلي له، وتصدق له، وتعذل له، وتترك الحرام له، وتعفو ابتغاء وجهه، وتقول الحق لأنك ستقف بين يديه.

ثم تكشف السورة تناقضاً آخر من تناقضات المشركين:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ).

نسبوا إلى الرحمن ولداً، فجمع القرآن في الرد بين التنزيه والتصحيح: (سُبْحَانَهُ)؛ تنزّه وتقدس عن حاجات المخلوقين.

(بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)؛ فالملائكة الذين زعموا أنهم بنات الله ليسوا أبناء ولا شركاء، بل عبادٌ بلغوا غاية التكريم في عبوديتهم.

وما أجمل أن يجعل القرآن العبودية والتكريم متجاورين. ففي مقاييس البشر قد تُفهم العبودية على أنها مذلة، لكن العبودية لله هي عين التكريم. كلما اكتمل افتقار العبد إلى ربه، حرّره الله من الافتقار إلى خلقه؛ وكلما ازداد خضوعه لله، ارتفع عن الخضوع للباطل.

لم يكرم الملائكة بخروجهم عن العبودية، بل أكرمهم بكمالها. وكذلك الإنسان لا تملو قيمته حين يستغني عن ربه — وهو لا يستطيع — بل حين يعرف عبوديته ويعيشها طوعاً ومحبة.

ثم تصف السورة أدب الملائكة مع الله:

(لَا يَسْتَفِئُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ).

لا يتقدمون بين يدي الله باقتراح أو اعتراض، ولا يقولون حتى يأمر، ولا يعملون إلا بأمره. إنها عبودية منضبطة لا تجعل الحماسة بديلاً عن الطاعة، ولا النية الحسنة مبرراً لمجاوزة الحدود.

وكم يحتاج الإنسان إلى هذا الأدب: ألا يسبق الله بالقول. ألا ينسب إلى الدين ما لم يقله الله، وألا يجعل ظنونه أحكاماً شرعية، وألا يحرم ويحل وفق مزاجه، وألا يحمل الوحي أهواءه ثم يقول: هذا مراد الله.

قد يسبق الإنسان ربّه حين يستعجل حكماً على شخص بالهلاك أو النجاة، أو يضيق رحمة الله على من لا يحب، أو يمنح صكوك الرضا لمن يوافقه. إن العبودية تقتضي أن نقف حيث أوقفنا النص، وأن نعلم أن الله أعلم بعباده منا.

(وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ)؛ لا بأهوائهم ولا باستقلال عن مشيئته. فالعمل الصالح لا يكفي أن يكون متحمساً، بل لا بد أن يكون مهدياً بأمر الله. وكم أفسدت الحماسة حين انفصلت عن العلم، وكم ظن إنسان أنه يخدم الحق بينما كان يخدم غضبه الشخصي تحت رايته!

ثم يبين القرآن إحاطة العلم الإلهي بهم:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ).

يعلم حاضرهم وما مضى وما يستقبلون، ويحيط بهم علماً لا تغيب عنه حركة ولا نية. فلا يملكون الشفاعة استقلالاً، ولا يتقدمون بها إلا لمن رضي الله أن يُشفع له.

إن الشفاعة نفسها ليست باباً للخروج من سلطان الله، بل مظهر من مظاهر ملكه ورحمته؛ يأذن بها لمن يشاء، ويرضاها لمن يشاء. فلا ينبغي أن يتحول الرجاء في الشفاعة إلى أمانٍ كاذبة تجرئ الإنسان على المعصية، كأن له عند الله طريقاً لا تمر بالرضا والإذن.

ثم وصف الملائكة بقوله:

(وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ).

هم عباد مكرمون، لا يعصون الله، ومع ذلك تمتلئ قلوبهم خشية. أما الإنسان فقد يثقل ظهره بالتقصير، ثم يعيش آمناً كأنه يحمل عهداً بالنجاة!

كلما ازدادت المعرفة بالله ازداد القلب خشيةً منه؛ لا خشية اليأس من الرحمة، بل خشية العارف بالجلال. فالذي يعرف عظمة من يقف بين يديه لا يتعامل مع الذنب باستخفاف، ولا يرى طاعته شيئاً يعجب به.

الخوف الصحيح لا يطرد الرجاء، بل يحميه من التحول إلى غرور. والرجاء الصحيح لا يطرد الخوف، بل يمنعه من التحول إلى قنوط. وبينهما يسير المؤمن: يخشى عدل الله، ويرجو رحمته؛ يرى تقصيره، ولا ينسى كرم ربه.

ثم تُختم الآيات بحسم كل ادعاء للألوهية:

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَقَدْ لَكَ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ).

حتى الملائكة المقربون، لو ادعى أحد منهم الألوهية — على سبيل الفرض — لكان جزاؤه جهنم. فلا قرابة تعلو فوق التوحيد، ولا منزلة تمنح مخلوقاً شيئاً من خصائص الخالق.

ووصفت الآية الشرك هنا بأنه ظلم؛ لأنه وضع للمخلوق في مقام الخالق، وسلب لأعظم حقوق الله، وإفساداً لمركز الإنسان. فكل ظلم فرغٌ بعيد من فروع اختلال العبودية؛ إذ حين لا يرى المرء فوقه إلهاً يحاسبه، يسهل أن ينصب نفسه إلهاً صغيراً على الآخرين.

الطاغية لا يقول دائماً بلسانه: أنا إله، لكنه قد يقولها بسلوكه حين يريد من الناس طاعةً لا حدود لها، وحين يرى نفسه فوق المساءلة، وحين يجعل رضاه معيار الحق، وغضبه معيار الباطل. وكل استبداد يحمل في داخله شهوةً خفيةً إلى الألوهية، وإن استعمل لغة الدين والتواضع.

هكذا تبني السورة التوحيد لا بوصفه مسألةً نظرية باردة، بل بوصفه نظامًا للكون وشفاءً للقلب وتحريرًا للمجتمع.

فالكون واحد النظام لأن مدبره واحد.

والنبوت واحدة الأصل لأن مرسلها واحد.

والعبادة واحدة الوجهة لأن المستحق لها واحد.

والإنسان لا يستقيم حتى يتوحد قلبه على الواحد.

إن تعدد الآلهة يفسد السماوات والأرض، وتعدد الأرباب في النفس يفسد الإنسان. وما أكثر ما نعانيه من تمزق لا يعود إلى قلة الإمكانات، بل إلى كثرة السادة الذين نحاول إرضاءهم!

وحين يقول القلب بصدق: لا إله إلا الله، تبدأ الأشياء في العودة إلى أحجامها: لا يعود الناس أكبر من أن يُخالفوا في الحق، ولا الدنيا أكبر من أن تُترك لأجل الله، ولا النفس أكبر من أن تُحاسب، ولا البلاء أكبر من حكمة الله، ولا الطاغية أكبر من المصير الذي ينتظره.

التوحيد أن يخرج من قلبك كل ما ادعى السيادة، فلا يبقى فيه إلا الله ربًّا، ولا يبقى لك إلا مقام العبد؛ وذلك المقام — على ما فيه من خضوع — هو أعلى مقامات الحرية والتكريم.

الفصل السادس

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا

كتابُ الكون المفتوح وأصلُ الحياة الجاري في الماء

بعد أن أقامت السورة برهان التوحيد من وحدة النظام: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)، دعت المكذبين إلى أن ينظروا في الكون نفسه؛ فالسمااء لا تتكلم بلغة الحروف، لكنها تعرض في بنائها شهادةً لا تقل وضوحًا:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ).

(أَوَلَمْ يَرَ)؛ سؤال لا يطلب مجرد حركة العين، بل يقظة البصيرة. فالآية قد تكون ماثلةً أمام الإنسان، ومع ذلك لا يراها؛ لأن الرؤية ليست دائمًا وظيفة البصر، بل موقف القلب مما يبصر.

يرى السماء كل يوم، حتى تفقد السماء في عينه دهشتها. ويرى الماء، حتى ينسى أن هذا السائل الهادئ يحمل سرَّ الحياة. ويرى الليل والنهار يتعاقبان، فيظن أن الانتظام العجيب أمر عادي لا يستدعي سؤالاً.

وهذه واحدة من أعظم آفات الألفة: أنها تطفئ وهج المعجزة. كل ما تكرر أماننا توهمنا أنه بسيط، لا لأنه بسيط في ذاته، بل لأننا اعتدنا. نندهش من حدث نادر، ولا نندهش من قلب ينبض عشرات السنين، ولا من عين تحوّل الضوء إلى صورة، ولا من ذاكرة تستدعي وجهًا غائبًا، ولا من بذرة تعرف في ظلمة التراب طريقها إلى الشمس.

لقد حجبت العادة عن الإنسان معجزاتٍ لا تنقطع.

(أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

الرتق هو الضم والالتحام، والفتق هو الفصل والشق والفتح. وقد تنوعت عبارات المفسرين في تصوير المعنى: ف قيل كانتا ملتئمتين ففصل الله بينهما، وقيل كانت السماء لا تمطر والأرض لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات. وهذه المعاني جميعًا تلتقي عند حقيقة القدرة: أن الله يفتح المغلق، ويفصل الملتئم، ويخرج من السكون حركةً، ومن الانضمام عوالم، ومن الإمساك فيضًا من الحياة.

ولا يحتاج القرآن إلى أن يُحمّل قسرًا تفاصيل النظريات المتغيرة كي يظهر إعجازه؛ فهو يهدي البصر إلى الحقيقة الكبرى الثابتة: هذا الكون لم ينشئ نفسه، ولم ينتقل من حال إلى حال بغير تقدير، بل كانت له بداية وتكوين، وكان وراء فتقه أمرٌ قادر وعلمٌ محيط.

إن العلم يصف للإنسان كيف جرت بعض التحولات، أما الوحي فيهيده إلى من خلق القوانين والمادة والزمان، ومن منح التحول إمكانه، ومن قدر له مساره. فلا خصومة بين وصف الآلية ومعرفة الخالق؛ إنما تبدأ الخصومة حين يتخذ الإنسان اكتشافه لبعض سنن الله ذريعةً لإنكار واضح السنن، كمن قرأ نظام الكتابة ثم زعم أن معرفته بالحروف أغنته عن الإقرار بوجود الكاتب.

كلما اتسعت معرفة الإنسان بالكون، اتسعت أمامه مساحة الدهشة. كان يظن السماء قبةً قريبة، فإذا به يكتشف من اتساعها ما يجعل أرضه نقطةً ضئيلة، ثم يكتشف في النقطة نفسها من الدقة والتعقيد ما يفوق تصوره. لا الاتساع يبدد العظمة، ولا تفسير بعض الظواهر يلغي الحكمة؛ بل كل باب يفتحه العلم يكشف وراءه أبوابًا أخرى.

لكن الإنسان قد يعرف أبعاد المجرات ولا يعرف قدر نفسه، ويحلل تكوين النجوم ثم يعيش كأن لا غاية لتكوينه، ويكتشف بدايات الأشياء ولا يسأل عن نهايته هو. ولذلك لم تختتم الآية بالسؤال: أفلا يعلمون؟ بل قالت: (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ).

لأن المعرفة الكونية لا تحقق غايتها حتى تعبر من العقل إلى القلب، ومن الاكتشاف إلى الخشوع، ومن رؤية النظام إلى معرفة المنظّم. قد يملك المرء معلومات كثيرة عن الخلق، ثم يظل بعيدًا عن الخالق؛ كمن أحصى نوافذ القصر وأبوابه ولم يسأل عن بانيه ولا عن الحكمة منه.

ثم تقيم الآية أمام الإنسان تلك الحقيقة التي تجري في عروقه وحوله:
(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا).

الماء؛ هذا المخلوق الشفاف الذي لا لون له، جعله الله حاملاً لألوان الحياة كلها. يدخل في الشجرة فيصير خضرةً وثمرًا، ويدخل في الزهرة فيصير عطرًا ولونًا، ويدخل في جسد الإنسان فيجري دمًا وحياءً، وينزل على الأرض الميتة فتتحول الصحراء الصامته إلى مشهد يهتز وينمو.

سبحان من أخفى أعظم أسرار الحياة في مخلوق يبدو في يد الإنسان بسيطاً! لا يتباهى الماء بصورته، لكنه يقيم الحياة. يهب الأشياء قدرتها على الظهور، ثم يظل هو متواضعاً شفافاً.

وفي الماء درسٌ لأهل الخير: ليس أعظم الناس أثراً أكثرهم صخباً، بل قد يكون أعظمهم من يجري في حياة الآخرين فيحييها، ولا يطالب كل زهرة سقاها أن تحمل اسمه. الماء لا يحتفظ بالحياة لنفسه، وإنما يمنحها لما يمر به؛ وهكذا القلب المؤمن، أينما حلّ ترك وراءه شيئاً من الرحمة والنماء.

والماء يعلم الإنسان اللين الذي لا يناقض القوة. يبدو رقيقاً بين الأصابع، لكنه يشق الصخر مع استمرار جريانه، ويحمل السفن، ويغير معالم الأرض. ليست القوة دائماً صلابةً صاخبةً؛ قد تكون ثباتاً هادئاً، ومرونةً تعرف طريقها، واستمراراً لا يمل.

وقد جعل الله حاجتنا إلى الماء تذكيرًا دائمًا بافتقارنا. يستطيع الإنسان أن يتجبر بما جمع، لكنه يعجز عن الاستغناء عن جرعة ماء. مهما علت منزلته، يظل جسده متعلقًا بقطرة لم يخلقها. وكأن الله وضع في تكويننا حاجاتٍ بسيطة تكسر وهم الاستقلال: نفسٌ من الهواء، وجرعة من الماء، وقليل من الطعام، وساعات من النوم. فمن أين يأتي الكبر إلى مخلوقٍ تحاصره حاجاته من كل جهة؟

وإذا كان الماء أصل الحياة الجسدية، فإن الوحي ماء الروح. وكما تموت الأرض إذا انقطع عنها الغيث، يقسو القلب إذا انقطع عن الذكر. قد يبقى الإنسان متحركًا في الأسواق، ناجحًا في الموازين المادية، لكنه في باطنه أرض متشقة تنتظر قطرة يقين.

والقرآن ينزل من السماء كما ينزل المطر؛ كلاهما حياة، غير أن المطر يحيي التراب، والوحي يحيي الإنسان الذي يمشي على التراب. وكم من قلب كان ميتًا فأصابته آية واحدة، فانشق فيه موضع للنور، ثم نبتت فيه حياة لم يكن يتوقعها!

ثم تنتقل السورة إلى تهيئة الأرض لاستقرار الإنسان:

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

الرواسي هي الجبال الثوابت، جعلها الله في الأرض، فجاءت في المشهد عنوانًا للرسوخ والاستقرار. لم يخلق الله للإنسان أرضًا مضطربة لا يستطيع أن يقيم عليها شأنه، بل هيأها لتكون قرارًا، ووضع فيها من أسباب التوازن ما يجعل الحياة ممكنة.

إن الإنسان يسير على الأرض مطمئناً، فلما يستشعر النعمة في ثباتها. لا يتوقع كل صباح أن تنقلب به، ولا يقضي يومه خائفاً من أن تفقد الأشياء قوانينها. وهذا الأمن الكوني نعمة تسبق كل نعمة اجتماعية؛ فقبل البيت الذي يؤويك، هناك أرض تحمل البيت، وقبل الطريق الذي تسير فيه، هناك قوانين تحفظ تماسك العالم.

نحن نشكر الله غالباً على الأشياء التي تضاف إلى حياتنا، وننسى شكره على الكوارث التي منعهنا عنا. نشكره على مال وصل، ولا نشعر بالآلاف الأخطار التي لم تصل. نشكره على شفاء مرض، وقد نغفل عن أعضاء ظلت تعمل في صمت ولم تمرض.

من رحمة الله أشياء موجودة، ومن رحمته أيضاً أشياء لم تقع.

والجبال في ظاهرها حواجز ضخمة، لكن الآية لا تترك الإنسان محاصراً بينها:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا).

جعل بين الجبال طرقاً واسعة وممرات، فلا يتحول الثبات إلى انسداد. في المشهد رواسي تمسك الأرض، وفجاج تفتح الطريق؛ ثباتٌ وحركة، رسوخٌ ومسير. وكأن في ذلك إشارةً إلى أن الحياة المستقيمة تحتاج إلى أصول راسخة وطرق مرنة: ثوابت تحفظها، ومساحات تسير فيها.

من لا ثوابت له تَمَيِّدٌ به الأهواء، ومن لا يعرف المرونة تغلق الجبال عليه الطريق. المؤمن راسخ في مبدئه، لكنه حكيم في وسائله؛ لا يبيع الحق باسم التطور، ولا يجمّد الحياة باسم الثبات.

والفجاء تذكرنا بأن الله الذي خلق الجبل خلق فيه أو حوله ممراً. ليست العقبة وحدها من خلق الله، بل الطريق خلالها أيضاً. قد يقف الإنسان أمام جبلٍ من الهم لا يرى له منفذاً، لكن عدم رؤيته الطريق لا يعني عدم وجوده.

كم من مخرج كان خفياً ثم ظهر في اللحظة التي ظن فيها المرء أن الجهات كلها أغلقت! وكم من محنة بدت جداراً، ثم اكتشف بعد عبورها أنها كانت ممراً إلى موضع لم يكن ليبلغه من طريق الراحة! إن الله لا يعدنا بأرض بلا جبال، لكنه يريدنا أن في الجبال فجاءاً. ولا يعدنا بحياة لا شدة فيها، لكنه يفتح في الشدة سبلاً للهداية والنضج والقرب.

ثم تأتي الغاية: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

قد تكون الهداية هنا إلى طرق الأرض ومقاصد السفر، وهي تشمل وراء ذلك أن تهديهم هذه الآيات إلى رب الأرض. فالطريق في الكون ينبغي أن يصبح طريقاً في القلب: يرى الإنسان الجبل فيستدل على قدرة من أرساه، ويرى الممر فيستدل على رحمة من فتحه، ويصل إلى وجهته الأرضية فيتذكر وجهته الوجودية.

ما الفائدة أن يهتدي المسافر إلى مدينة في الأرض، ثم يضل الطريق إلى الله؟ وأن يحسن استعمال الخرائط، لكنه لا يملك خريطةً أخلاقيةً تميز له مواقع الحق والباطل؟ قد يعرف الإنسان كل الطرق إلا الطريق الذي ينقذه.

الهداية ليست أن تبلغ المكان الذي تريده فحسب، بل أن تريد المكان الذي ينبغي أن تبلغه.

ثم ترفع السورة البصر مرة أخرى:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ).

السماء سقْفٌ عظيم لا يقوم على أعمدة يراها الناس، محفوظ بأمر الله ونظامه. وتحت هذا السقف تعيش البشرية كلها؛ المؤمن والكافر، والشاكر والجاحد. يظل الله يحفظ النظام الذي يعصي الإنسان تحته، ويمده بأسباب الحياة وهو معرض عن آياتها.

وما أعجب الإعراض! تسير الشمس وفق تقدير، وتتنظم الأجرام، وتُحفظ الأرض بما أودعه الله في نظامها، والإنسان منشغل بأمور صغيرة كأن السماء فوقه فراغ لا يحمل رسالة.

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ)؛ لا عن السماء نفسها. فهم يرونها، وربما يدرسونها ويقيسون مسافاتهما، لكنهم يعرضون عن دلالتها. وقد ينشغل الإنسان بالآية عن صاحب الآية؛ يدرس جمال الزهرة ولا يذكر من صوّرها، ويقيس ضوء النجم ولا يسجد لمن أضاءه.

إن المعرفة التي تقف عند حدود المادة ترى من الوجود سطحه، أما المؤمن فيرى المادة نفسها بابًا إلى المعنى. لا ينكر القانون، لكنه يعلم أن القانون ليس مشرّع نفسه. ولا يستخف بالبحث، لكنه يرفض أن يتحول ما اكتشفه إلى حجاب عما لم يخلقه.

السقف المحفوظ فوق الجميع، لكن الانتفاع بالعلامة ليس للجميع؛ لأن الآيات لا تقتحم القلوب التي قررت الإعراض.

ثم تجمع الآية الأخيرة حركة الزمن والفضاء في مشهدٍ واحد:
(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

خلق الليل بما يحمل من سكون وستر، والنهار بما يحمل من حركة وظهور، والشمس بنورها وحرارتها، والقمر بنوره ومنازله. ليست هذه الأشياء آلهة كما توهمت أمم، بل مخلوقات تجري بأمر الله. إنها عظيمة، لكن عظمتها تدل على عظمة خالقها، لا على استحقاقها العبادة. والشمس التي كان يسجد لها بعض الناس لا تستطيع أن تتأخر عن مدارها، والقمر لا يختار منازلها، والليل لا يقرر متى يأتي. الجميع عبادٌ في صورة آيات.

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

التعبير يجعل الأجرام كأنها سابحة في فضاء واسع، لا تتوقف ولا تصطدم، لكل منها مسارها الذي قدره الله. حركةٌ دائمة داخل نظام، وسرعة هائلة داخل انضباط.

وفي هذا درس للحياة: ليست الحركة وحدها إنجازاً؛ فقد يتحرك الإنسان كثيراً في الاتجاه الخطأ. الجمال أن تكون لك حركة ووجهة، طاقة ونظام، سعي ومدار. تلك الأجرام لا تعرف الفوضى، بينما قد يعيش الإنسان موزعاً بين أعمال كثيرة بلا غاية تجمعها.

لكل في فلك؛ فلا تطالب نفسك أن تسير في فلك غيرك. جعل الله لكل إنسان مواهبه وابتلاءه وطريقه وزمن نضجه. كثير من شقاء النفس يولد حين تخرج من مدارها لتقارن نفسها بمدارات الآخرين. تنظر إلى شمس في حياة غيرها وتحتقر ضوء القمر الذي منحها الله، مع أن لكل مخلوق وظيفته وجماله.

ليس المطلوب أن تكون نسخةً من أحد، بل أن تسبح في الفلك الذي خلقك الله له، مطيعاً له، مؤدياً أمانتك، غير مصطدم بحدوده.

في هذه الآيات ينتقل الإنسان بين ثلاث آيات كبرى: بداية الكون، ونشأة الحياة، وانتظام الحركة.

كانتا رتقاً ففتقهما الله.

وكانت الأرض قابلة للميد فجعل فيها رواسي.

وكان الفضاء مجالاً للحركة فجعل لكل جرم فلکاً.

لا شيء متروك للفوضى، ولا شيء خرج من العتب. وحين يرى المؤمن ذلك يشعر أنه يعيش داخل كون تدبره يد الحكمة؛ فلا يعود قلبه يتيمًا في الوجود، ولا يرى الأحداث ذراتٍ متناثرة بلا رابط.

فالذي فتق السماوات والأرض قادرٌ أن يفتق في الجدار المغلق باباً، والذي أخرج الحياة من الماء قادرٌ أن يحيي قلباً أماته اليأس، والذي جعل في الجبال فجاءةً قادرٌ أن يجعل في المحنة طريقاً، والذي حفظ السماء قادرٌ أن يحفظ عبده، والذي ضبط الشمس والقمر في أفلاكهما قادرٌ أن يعيد إلى حياته نظامها إذا سلّمها له.

إن الكون لا يقول للإنسان: تأمل عظمتي فحسب، بل يقول له:
اعرف ربك. فكل اتساع في السماء نافذةً إلى قدرته، وكل قطرة ماء
رسالةً من رحمته، وكل جبلٍ شاهدٌ على حكمته، وكل فلكٍ سابح
إعلانٌ أن هذا الوجود لم يُترك لحظةً واحدةً بلا تقدير.

الفصل السابع

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

الحقيقة التي تهزم وهم الخلود وتزن الحياة بالابتلاء

بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى الشمس والقمر، وهما يسبحان في أفلاكهما وفق تقديرٍ لا يختل، رَدَّتْ الإنسان إلى أقرب الحقائق إليه وأشدّها اقتحامًا لأوهامه: حقيقة الموت.

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ).

كان أعداء الرسول ﷺ يتربصون بموته، كأن موت حامل الرسالة يعني موت الرسالة، وكأن غياب الجسد يستطيع أن يطفئ نورًا تكفل الله بحفظه. فجاءت الآية لتقرر أن محمدًا ﷺ بشر يجري عليه ما جرى على الأنبياء من قبله، وأن الذين ينتظرون موته ليسوا بمنأى عن الموت.

(أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ)؟

سؤال يقلب سخريتهم عليهم. إذا كان الموت عندهم نهايةً يتشفون بها، أفلتوا هم من نهايته؟ وإذا كانوا يعدّون الأيام لغياب الرسول، فمن منحهم عهدًا بأنهم سيبقون بعده؟

الإنسان يرى موت الآخرين، لكنه يتعامل معه في أعماقه كأنه استثناء لا يشمله بعد. يحمل الجنازة، ويمشي إلى المقبرة، ويرى التراب يُهال، ثم يعود فيستأنف خصوماته وأطماعه كأنه ودّع الموت نفسه، لا ميثًا واحدًا.

ندفن أحبابنا، لكننا كثيرًا ما ندفن معهم الرسالة التي جاء موتهم ليقولها لنا. نبكي عند القبر، ثم ما أسرع ما تجف العين قبل أن يستيقظ القلب.

ولم يجعل الله لبشر الخلد؛ لا لنبي كريم، ولا لملك عظيم، ولا لعبقري غير وجه عصره. تمضي الأجساد جميعًا، ويزول حضورها المباشر، ولا يبقى منها إلا ما أودعته في الحياة من إيمان أو خير أو ظلم أو فساد.

إن الموت يساوي بين الأجساد، لكنه لا يساوي بين الآثار. يدخل الصالح والطالح القبر من الباب نفسه، لكن أحدهما يصطحب نور عمله، والآخر يحمل ظلمة ما قدّم. وما أضيق القبر على من وسّع لنفسه في الدنيا بالظلم، وما أرحبه على من ضاقت به الأرض وهو ثابت على الحق!

وفي الآية عزاء لأهل الرسالات: لا تربطوا بقاء الحق ببقاء رجل، ولو كان من أعظم رجاله. فالرسول ﷺ مات، لكن القرآن الذي بلغه بقي، والأمة التي ربّاه حملت النور من بعده. والأنبياء جميعًا مضوا، لكن نداءهم لا يزال يعبر القرون.

إن المشروع الذي يموت بموت صاحبه كان متعلقًا بالشخص أكثر من تعلقه بالمبدأ. أما الرسالة الربانية، فإن صاحبها يبني رجالًا يحملونها، لا جمهورًا لا يتحرك إلا بحضوره.

والآية تربي صاحب الفضل أيضًا على التواضع: لست خالداً، فلا تجعل الناس أسرى لذاتك. علّمهم الفكرة، وامنحهم القدرة على الاستمرار، واترك فيهم ما يبقى بعدك. إن أعظم النجاح ألا يظل الخير محتاجاً إلى وجودك الجسدي كي يعمل.

ثم تأتي الحقيقة الجامعة:

(كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ).

(كُلُّ)؛ كلمة لا تترك منفذاً لاستثناء. كل نفس، مهما اشتدت عافيتها، أو طال أملها، أو أحاطت نفسها بأسباب الحماية، ستذوق الموت.

ولم تقل الآية: كل نفس ميتة، بل قالت: (دَائِقَةُ الْمَوْتِ). والذوق مباشرة لا ينوب فيها أحد عن أحد. يستطيع الناس أن يصفوا لك ألماً أو طعاماً، لكنك لا تعرف حقيقة مذاقه حتى تذوقه بنفسك. وكذلك الموت: نراه يقع بالآخرين، أما لحظته فلقاء فردي لا يحملها عن الإنسان قريب ولا صديق.

سيذوقه الذي كان يأمر الجموع، فلا يجد من ينوب عنه. ويذوقه الغني، ولا يستطيع شراء لحظة إضافية. ويذوقه الطبيب الذي عرف أمراض الأجساد، والعالم الذي فسر الظواهر، والجندي الذي أربح خصومه. عند تلك العتبة تسقط الألقاب، ويبقى الاسم الذي لا يُرى: عبدٌ عائد إلى ربه.

لكن التعبير بالذوق يحمل إشارةً إلى أن الموت مرحلة تُذاق، لا عدمٌ مطلق يبتلع الإنسان. فالذائق موجود بعد الذوق؛ والموت عبور من دار إلى دار، وانفصال للروح عن الجسد، وليس انتصاراً نهائياً للفناء.

إن الذي يموت هو صورتنا الأرضية التي ألفناها، أما الإنسان فينتقل إلى عالمٍ تتكشف فيه الحقائق التي كان يؤمن بها أو يجدها. ولذلك ليس السؤال: هل سأموت؟ فقد حُسم الجواب. وإنما السؤال: على أي حال سألقى الموت، وماذا سأجد بعده؟

ثم تكشف الآية معنى الحياة قبل الموت:

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

الحياة ليست انتظاراً سلبياً للموت، بل امتحان ممتد بين الخير والشر. والغريب أن الآية جعلت كليهما ابتلاءً: ما يؤلمنا وما يسرنا، ما يُنقصنا وما يزيدنا، ما نكرهه وما نحبه.

نحن نفهم بسرعة أن المرض والفقد والفقر امتحانات، لكننا ننسى أن الصحة والوجود والغنى امتحانات كذلك. قد ينجح الإنسان في بلاء الحرمان، فيصبر ويلجأ إلى الله، ثم يفشل في بلاء العطاء، فيتكبر وينسى.

الشر يختبر صبرك، والخير يختبر شكرك.

الفقر يسألك: هل تثبت ولا تبيع ضميرك؟ والغنى يسألك: هل تتواضع ولا تمنع الحق؟

الضعف يسألك: هل تحافظ على إيمانك؟ والقوة تسألك: هل تحافظ على عدلك؟

المرض يكشف تعلقك بالله، والصحة تكشف فيما تنفق قدرتك.

الوحدة تختبر يقينك، والاجتماع بالناس يختبر أخلاقك.

وقد يكون العطاء امتحاناً أشد من المنع؛ لأن المنع يذكرك بضعفك، أما العطاء فقد يوهمك باستغنائك. في الشدة تتساقط الأقنعة سريعاً، أما النعمة فقد تصنع حول القلب غلاًفاً ناعماً من الغفلة.

كم من إنسان دعا الله طويلاً أن يمنحه شيئاً، فلما مُنحه صار ذلك الشيء حجاباً بينه وبين الله! وكم من شخص ظن أن النعمة جواب محبة، ولم يفهم أنها سؤال مسؤولية!

(فِتْنَةٌ)؛ أي اختباراً يكشف ما في النفوس. والفتنة في أصل معناها تذكر بعرض المعدن على النار لتمييز خالصه من زائفه. والأحداث لا تخلق دائماً ما في الإنسان، بل تكشفه؛ فالسلطة لا تزرع كل الكبر، لكنها تمنحه فرصة الظهور. والمال لا يصنع البخل من العدم، لكنه يزيح الستار عنه. والألم لا يخلق الإيمان بالضرورة، لكنه يكشف عمقه.

قد نظن أنفسنا صابرين حتى يأتي ما يستدعي الصبر، أو متواضعين حتى ينازعنا أحد المكانة، أو عادلين حتى تصبح مصلحتنا في كفة والحق في كفة. عندها تبدأ المعرفة الحقيقية بالنفس.

ولذلك ليست الفتن كلها شرًّا محضًا، وإن آلمتنا؛ فقد تكون مرايا أرسلها الله لنرى ما فينا قبل أن نلقاه به. ورب محنةٍ عزّفت الإنسان بمرض قلبه، فكانت بداية شفائه، ورب نعمةٍ كشفت له غفلته فاستدرك نفسه قبل الفوات.

ثم تأتي النهاية التي تمنح الاختبار معناه:

(وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ).

لم يقل: وإلى الموت ترجعون؛ لأن الموت ليس الغاية. الرجوع إلى الله هو الغاية، والموت بابها. نحن لم نخرج عن ملكه حتى يكون الرجوع رجوع مكان، وإنما هو رجوع إلى مقام الجزاء وظهور الحكم الكامل.

بدأنا بأمره، ونعيش برزقه، ونعود إلى قضائه. وبين البدء والرجوع مساحة قصيرة اسمها الحياة، مُنحنا فيها قدرة الاختيار، ثم نُسأل عمّا اخترنا.

إن قوله: **(الْيَنَّا)** يملأ قلب المؤمن بمعنيين معًا: الهيبة والأنس. يهابه لأنه سيقف بين يدي من يعلم السر وأخفى، ويأنس لأنه يعود إلى أرحم الراحمين، لا إلى قوة غريبة عنه.

المؤمن لا يرى الموت سقوطًا في المجهول، بل عودةً إلى الله. وربما خاف تقصيره، لكنه لا يخاف أن يضيع عند ربه. فمن عرف الله في الرخاء والشدّة، لم يكن لقاء الله انتقالًا إلى غريب.

ثم تصور السورة كيف واجه المشركون الرسول ﷺ:

(وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَئِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ).

كانوا إذا رأوه لم يناقشوا حجته، بل اتخذوه هزواً. والسخرية كثيراً ما تكون ملجأ العاجز عن المواجهة الفكرية؛ حين لا يستطيع إسقاط الفكرة، يحاول إسقاط صاحبها في أعين الناس.

يسخر من مظهره، أو فقره، أو قلة أتباعه، أو طريقته في الكلام؛ لأن نقل المعركة من البرهان إلى الشخص يريح الباطل من الإجابة عن السؤال الحقيقي.

قالوا متعجبين محتقرين:

(أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟)

لم يحتملوا أن تُذكر آلهتهم بالنقد، مع أنهم يكفرون بذكر الرحمن. يغضبون للحجارة، ولا يغضبون لجلال الله. يرون المساس بموروثهم جريمة، بينما لا يرون في إنكار خالقهم ما يستحق المراجعة.

وهذه طبيعة العصبية حين تنتقد: تدافع عن الرمز لا لأنه حق، بل لأنه رمزها. قد يعرف الإنسان في قرارة نفسه ضعف الفكرة، لكنه يرى نقدها نقداً لهويته ولقومه، فينتصر لذاته تحت اسم الانتصار للمقدس.

وما أكثر من يحتمل أن يُعصى الله، لكنه لا يحتمل أن يُخالف حربه أو جماعته أو زعيمه! يثور إذا ذُكر محبوبه بنقد، ولا يتحرك قلبه إذا انتهكت حدود الله. وهنا ينكشف ترتيب المقدرات الحقيقي، لا ذلك الذي تعلنه الأسنة.

وقوله: **(بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)** يحمل مفارقةً تهز القلب. يكفرون بمن اسمه الرحمن؛ بمن وسعت رحمته حياتهم وهم يحدونه، وأمدهم بالنفس والطعام والأمن والمهلة. يعصونه بنعمه، ويتقنون على إنكاره بما منحهم.

اختيار اسم الرحمن هنا كأنه يكشف قبح الجحود: لم يكفروا بالله يمنع عنهم كل خير، بل كفروا بالرحمن الذي لا تدفعه جنايتهم إلى قطع عنايته عنهم في زمن الإمهال. يرزقهم وهم ينسبون إليه الشريك، ويحفظ أجسادهم وألسنتهم التي يسيئون بها.

لكن رحمته التي أمهلتهم لا تعني أن الباطل صار مقبولاً، بل لعل الإمهال باب يرجعون منه قبل أن يأتي الحساب.

ثم تضع السورة يدها على أصلٍ عميق في الطبيعة البشرية:
(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون).

كأن العجل دخل في تركيب الإنسان حتى قيل: **(مِنْ عَجَلٍ)**. يريد الثمرة قبل نضجها، والنصر قبل اكتمال أسبابه، والإجابة قبل أن يتم الدعاء تربيته لقلبه. يضيق بالمسافة بين الزرع والحصاد، وبين الوعد وتحققه، وبين الظلم ونهايته.

والعجلة ليست مجرد سرعة، فالسرعة قد تكون محمودة في الخير؛ إنما العجلة أن يطلب الإنسان الشيء قبل أوانه، أو يحكم على الطريق قبل نهايته، أو يقطع لحظةً من القصة ثم يصدر حكمًا على القصة كلها.

كم من إنسان قال: دعوت فلم يُستجب لي، مع أن الإجابة كانت تُصنع له في طريق لا يراه! وكم قال: تأخر النصر، لأنه قاس زمن الحكمة الإلهية بساعة رغبته! وكم ترك مشروعًا صالحًا لأن الثمار لم تظهر في الأيام الأولى!

النبته لا تستجيب لصراخ المستعجل، وإنما تنمو وفق سنتها. والليل لا يقصر لأن القلق ضاق به. وبعض الأعمال العظيمة تحتاج إلى صبرٍ لا يقل عظمةً عنها.

(سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون).

سيأتي ما وُعدتم به؛ لأن الوعد صادر ممن يملك الزمن. والاستعجال لا يقدم المقدور، لكنه قد يحرم القلب سكينه الانتظار.

إن الله لا يتأخر؛ فهو سبحانه من قَدَّر لكل شيء وقته. نحن الذين نصل إلى الموعد قبل نضجنا، ثم نظن أن الحكمة تأخرت. وقد يكون التأخير في أعيننا إعدادًا، وقد يكون المنع حمايةً، وقد يكون طول الطريق هو الذي يصنع فينا القدرة على حمل ما نطلبه.

لكن المكذبين لم يكونوا يستعجلون طلباً للهداية، بل استهزاءً:
(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

يريدون أن تأتيهم العقوبة برهاناً على صدق التحذير، غافلين عن أن مجيئها سينهي زمن الانتفاع بالبرهان. إنهم يطلبون رؤية النار ليصدقوا أنها تحرق، فإذا رأوها من موضع المعاينة لم يعد التصديق ينجيهم.

وكثير من الناس يعامل الوعيد الإلهي بعقلية التأجيل: ما دامت العقوبة لم تقع، فلعله لا عقوبة. يخلط بين عدم وقوع الشيء الآن وعدم وقوعه أبداً. لكن تأخر الموعد لا يلغيه، كما أن طول الطريق لا يعني عدم وجود نهايته.

ولذلك تكشف الآية التالية ما كانوا يستعجلونه:

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ).

لو يعلمون حقيقة تلك اللحظة لما استعجلوها. تحيط بهم النار من أمامهم وخلفهم، فلا يملكون دفعها، ولا يأتئهم ناصر.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يدير وجهه عن المشهد الذي يزعجه، وأن يهرب من النصيحة، وأن يغلق الصفحة التي تذكره بالآخرة. أما هناك فلا يستطيع أن يكف النار عن وجهه ولا ظهره. انتهت قدرة الإعراض؛ والحقيقة التي كان يوليها ظهره أحاطت به من الوجه والظهر.

(وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)؛ أين الآلهة التي عبدوها؟ وأين الجماعات التي استقوا بها؟ وأين المال الذي ظنوه حصناً؟ في لحظة الحساب ينفصل الإنسان عن شبكات القوة الوهمية، ويقف بعمله.

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ).

تأتي الساعة بغتة؛ لا تمنح الإنسان مهلةً يهيئ فيها توبةً مؤجلة. (فَتَبْهَتُهُمْ)؛ تصدمهم حتى تنقطع حججهم، ويسقط تماسكهم، ويفقون أمام ما لم يستعدوا له.

والبغته ليست في أن العلامات لم تكن موجودة، بل في أنهم عاشوا معرضين عنها. الموت يرسل رسله كل يوم: شيئاً يظهر، وقوة تنقص، وأصحاباً يرحلون، وأخباراً عن فناء من كان يملأ الدنيا. لكن الغافل يعامل كل إنذار كأنه يخص غيره، حتى يأتيه الإنذار الأخير.

ولا يستطيعون ردها؛ لأن الإنسان يملك قبل الموعد اختيار الطريق، لكنه لا يملك بعد الموعد إلغاء النهاية. له أن يتوب الآن، لكنه لا يملك أن يشترط بقاء الآن إلى الغد.

ولذلك فالحكمة ليست أن تعرف متى تموت، بل أن تعيش على حال لا تفزعك معها مباغطة الموت. من أصلح ما بينه وبين الله، لم يحتج إلى موعد مسبق كي يتصنع الاستعداد.

ثم يسلي الله رسوله ﷺ:

(وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بُرْسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

لست أول رسول يُسخر منه؛ فهذا طريق مرّت به النبوات. إن الألم حين يراه الإنسان حادثةً تخصه وحده يزداد ثقلًا، لكنه حين يدرك أنه جزء من طريق أهل الحق يجد فيه معنىً وصحبة.

كل استهزاء واجهه نبي كان محاولةً لعزل صاحب الرسالة نفسيًا؛ ليشعر أنه غريب سخيّف، وأن الجماعة كلها ترى ما يقول جنونًا. لكن السورة تربطه بإخوانه من الرسل: أنت لست وحيدًا؛ خلفك موكب طويل من الذين ضحك منهم أهل زمانهم، ثم صار الضاحكون عبرةً وصار الرسل هداةً للقرون.

ما الذي بقي من ضحك المستهزئين؟ حاق بهم ما كانوا يسخرون منه. أحاطت بهم الحقيقة التي جعلوها مادةً للتندر. وكأن سخريتهم كانت دائرةً رسموها حول الحق، ثم أغلقت عليهم هم.

إن الاستهزاء لا يغير طبيعة الحقيقة. قد يضحك المجلس كله من كلمة صادقة، لكنها لا تصبح كذبًا بسبب كثرة الضاحكين. وقد يقف صاحب الحق منفردًا، لكنه لا يصبح مخطئًا بسبب وحدته. فالحق يستمد قيمته من مطابقته لما عند الله، لا من عدد المصفيين له.

وكم من فكرة صالحة سُخر منها في بدايتها، ثم احتاج الناس إليها بعد أن دفعوا ثمن سخريتهم! وكم من ناصح اتهموه بالتشاؤم، فلما وقعت العاقبة عرفوا أنه كان يرى ما حجبته عنهم الغرور!

إن هذا المقطع من السورة يضع الإنسان بين حقيقتين: الموت الذي لا يتأخر، والعجلة التي لا تريد الانتظار.

نستعجل أشياء الدنيا كأننا خالدون فيها، ونؤجل الاستعداد للموت كأنه لن يأتي. نريد الرزق الآن، والنصر الآن، والاعتراف الآن، لكننا نقول للتوبة: غداً. وهذه من أعجب مفارقات النفس: تستعجل ما يجوز تأخيرها، وتؤخر ما قد لا تدركه بعد لحظتها.

جاء القرآن ليعيد ترتيب هذا الزمن المضطرب فينا: لا تستعجل وعد الله، فهو آتٍ في وقته، ولا تؤجل رجوعك إلى الله، فإن الموت قد يأتي بغير موعد تعلمه.

كل نفس ذائقة الموت؛ ولكن النفوس لا تذوقه سواءً. نفس تذوقه وقد استنفدت عمرها في الهرب من الله، فتجده باباً إلى ما كانت تخشاه؛ ونفس تذوقه وقد أمضت حياتها تسير إليه، فتجده نهاية الغربة وبداية الرجوع.

فليست النجاة في أن يطول العمر، بل أن يمتلئ بما ينفع. وليس الخطر أن يأتي الموت بغتة، بل أن يجد القلب غافلاً. وليس الخلود أن يبقى الجسد، فقد نُفي الخلد عن كل بشر؛ وإنما الخلود الحقيقي أن يترك الإنسان في الأرض أثراً صالحاً، ثم يجد عند الله عملاً لا يزول.

الفصل الثامن

وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ

حراسة الرحمن، وموازين العدل، والقلوب التي لا تسمع

بعد أن كشفت السورة نهاية المستهزئين، وبيّنت أن ما يسخرون منه سيحقيق بهم، واجهتهم بسؤال يردّهم إلى ضعفهم الذي غطّاه الغرور:

(قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ).

من يحفظكم في الليل والنهار إن أراد الرحمن بكم أمراً؟ من يحرس أجسادكم وأنتم نائمون، وقد سلّمتم وعيكم إلى الغياب؟ من يحفظ قلوبكم أن تتوقف، وأنفاسكم أن تنقطع، وبيوتكم أن تنهار، والأرض أن تضطرب، وملايين الأخطار الدقيقة أن تصل إليكم؟

ينام الإنسان فيغلق الأبواب، ويضع الأقفال، ويظن أنه أحكم حراسته، ثم يسلم نفسه إلى نوم لا يملك فيه دفع بعوضة عن وجهه. ولو وكل الله إليه حفظ نبضة واحدة من قلبه لما استطاع.

إن وراء كل ليلة نعبرها بسلام حراسة لا نراها. ووراء كل صباح نفتح فيه أعيننا إذناً جديداً بالحياة. نحن لا نستيقظ بقوتنا؛ إنما تُرد إلينا أرواحنا، وتُفتح أمامنا صفحة أخرى لم تكن نملك ضمانها.

وكلمة (يَكْلُوكُمْ) تحمل معنى الرعاية والحفظ المتصل. فالإنسان لا يحتاج إلى الله عند الكوارث وحدها؛ إنه محتاج إلى حفظه في كل لحظة تبدو عادية. وما العادي إلا معجزة تكررت حتى ألفناها.

نحن نرى الحادثة التي وقعت، ولا نرى آلاف الحوادث التي صرفها الله عنا. نعرف المرض حين يدخل أجسادنا، ولا نعرف كم مرضاً مُنع قبل أن يصل. نذكر يداً أساءت إلينا، ولا ندرك كم يد شرّ كفّها الله عنا دون أن نعلم بها.

من رحمة الله حمايةً نشعر بها، وحماية لا نعرفها أبداً. وقد يعيش الإنسان عمره كله داخل سياج من الألفاظ الخفية، ثم يظن أن سلامته ثمرة ذكائه وتدبيره وحدهما.

لكن الآية قالت: (مِنَ الرَّحْمَنِ)، ولم تقل: من الله فحسب؛ وكأنها تضعهم أمام مفارقة أخرى: مَنْ يحفظكم إن جاءكم أمر الرحمن الذي طالما أعرضتم عن ذكره؟

إنه الرحمن حتى في إنذاره؛ لأن التحذير رحمة قبل أن يأتي العقاب. والحدود التي وضعها للإنسان ليست تضيقاً عليه، بل حراسة له من نفسه. كما يمنع الأب الحاني ولده من النار، يمنع الوحي الإنسان من مسالك الهلاك.

لكن الإنسان قد يسيء فهم الرحمة، فيظن أنها تعني أن يُترك لهواه، وأن يُعطى كل ما يشتهي، وأن تُرفع من طريقه كل مشقة. بينما قد تكون الرحمة في منع يوجعه، أو ابتلاء يوقظه، أو باب يُغلق في وجه رغبة كانت ستفتح عليه أبواب الندم.

الرحمن لا تدفعه جناية العبد إلى قطع العناية عنه في زمن الإهمال؛ لكنه لا يجعل رحمته ستارًا يختبئ خلفه الإصرار على الظلم. يطعم العاصي، ويحفظه، ويمهله، ويدعوه؛ فإن جعل العاصي الإهمال حجةً على الأمن من الحساب، فقد حوّل باب الرحمة إلى ذريعة للغرور.

ثم تقول الآية:

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ).

لم يقل: لا يملكون دليلًا، بل إنهم معرضون عن الذكر. فالآيات حولهم، والحفظ يكتنفهم، والنعمة تجري فيهم، لكنهم لا يلتفتون إلى ربهم.

والإعراض عن ذكر الرب لا يعني ترك الألفاظ فقط؛ بل أن يعيش الإنسان في النعمة ولا يرى المنعم، وأن يستعمل الوجود دون أن يسأل عن مالكة، وأن يتلقى الحفظ كل يوم ثم ينسب السلامة إلى قوته وحدها.

والتعبير بـ(رَبِّهِمْ) يوقظ معنى التربية والرعاية. هو ربهم الذي أنشأهم طورًا بعد طور، وربّاهم بالنعمة، ودبر حياتهم، ومع ذلك يعرضون عن ذكره. إنها ليست غفلة عن حقيقة بعيدة، بل إعراض عن أقرب من أحاط بهم علمًا ورحمةً وتدبيرًا.

ثم تسأل السورة:

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ).

هل لهم آلهة تحميهم من الله؟ هل يملكون جهةً أخرى يلجؤون إليها إذا جاء أمره؟

إن المعبودات التي علّقوا بها قلوبهم لا تستطيع نصر أنفسهم، فكيف تنصرهم؟ والضعيف لا يتحول إلى قوي لمجرد أن الآخرين توهّموا فيه القوة. قد يصنع المجتمع هالةً حول شخص، وقد يمنحه من الألقاب ما يشاء، لكنه يظل جسداً يحتاج إلى الهواء والماء، وعبدًا لا يملك لنفسه موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

ومن أعجب حماقات الإنسان أن يطلب الأمن عند خائف، والخلود عند فانٍ، والعزة عند مخلوق ذليل لسنن الله. يتعلق بمنصب يزول، أو مال ينتقل، أو بشر يموت، ثم يترك التعلق بمن بيده ملكوت كل شيء.

(وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ)؛ لا يُجارون من بأس الله، ولا يجدون صحبةً تحميهم من حكمه. فالصحبة التي يظنها الإنسان حصناً تتفكك عند الحقيقة الأخيرة. يتبرأ المتبوع من التابع، وينشغل كل امرئ بنفسه، ولا تبقى إلا صحبة الإيمان والعمل الصالح.

كم يختار الإنسان صحبةً تقويه على الباطل، ثم يكتشف أنها كانت تضعفه أمام الله! ليس كل من وقف إلى جانبك ناصرًا لك؛ فقد يكون الذي يصفق لخطئك أشد الناس خذلانًا لك، والذي ينصحك ويؤلمك بكلمة الحق هو صاحبك الحقيقي.

ثم تكشف السورة سبب تماذيتهم:

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ).

لقد امتد بهم المتاع، وطال عليهم العمر، حتى ظنوا أن استمرار
النعمة دليل على دوامها، وأن طول الإمهال شهادةً بسلامة الطريق.

والزمن إذا لم يُقرأ بوصفه نعمةً ومسؤوليةً قد يتحول إلى حجاب.
كلما تأخر الحساب ازداد الغافل شعورًا بالأمان، مع أن كل يوم يمر
يقربه منه. يرى طول عمره زيادةً في ملكه، ولا يراه نقصًا من أجله.

(مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ)؛ فالمتاع ليس دائمًا علامة اصطفاء. قد
يعطي الله الإنسان ليشكر، وقد يمهله ليرجع، وقد يستدرجه من حيث
لا يعلم. ولذلك لا يصح أن يقيس المرء منزلته عند الله بحجم ما في
يده، وإنما بما يصنعه ما في يده بقلبه وعمله.

قد يُعطى الطاغية صحةً ومالاً ونفوذًا، فيتوهم أن السماء راضية
عنه، بينما تكون النعم نفسها تتحول في صحيفته إلى أسئلة ثقيلة.
فالنعمة لا تشهد لصاحبها حتى يشهد لها بالشكر.

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا).

يرون سلطان الباطل ينحسر، ورجاله يتناقصون، ودائرة الحق
تمتد، والأجيال تمضي، والأطراف التي أحكموا قبضتهم عليها تتقلت
من أيديهم. ويرون الموت يأخذ من حولهم واحدًا بعد آخر، كأنه يأتي
أرض وجودهم فينقصها من أطرافها، حتى يصل إليهم.

كلما مات شخص من محيط الإنسان نُقصت أرضه الخاصة. يختفي وجهه كان جزءاً من عالمه، ويُغلق صوت كان يمنحه معنىً، ويصغر العالم من حوله. ومع ذلك يواصل الإنسان العيش كأنه المركز الذي لا يصل إليه النقص.

وتتراجع الأمم أيضاً من أطرافها قبل أن تسقط من مركزها. تبدأ خسارتها حين تفقد القيم التي كانت تمنحها التماسك، ثم تفقد ثقة الناس، ثم تتآكل هيبتها، حتى يكتشف الجميع أن البناء الذي بدا شامخاً كان يُنقص في صمت.

(أَفَهُمُ الْعَالِيُونَ؟)

سؤال يسقط دعوى الغلبة. قد يكسبون جولةً، ويؤذون مؤمناً، ويؤخرون دعوةً، لكن هل يستطيعون هزيمة الزمن؟ هل يردّون الموت؟ هل يمنعون انحسار سلطانهم؟ هل يخرجون من ملك الله؟

الغالب حقاً ليس من ربح لحظته وخسر عاقبته، بل من ثبت على الحق حتى لقي الله. وكم من مغلوب في حساب الناس كان هو المنتصر في ميزان الخلود، وكم من غالبٍ فوق رقاب الخلق انتهى اسمه مقترناً باللعنة والعار!

ثم يحدد الرسول ﷺ مصدر إنذاره:

(قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ).

لا أُنذركم بظن أو كهانة أو خوف شخصي؛ إنما أُنذركم بالوحي. وهذه الكلمة تمنح الدعوة صفاءها وسلطانها. فالرسول لا يملك أن يغير مضمون الرسالة ليرضي الناس، ولا أن يخفف الحقيقة حتى تصبح موافقةً لأهوائهم؛ إنه مبلغ عن الله.

والداعية الذي يحمل شيئاً من ميراث النبوة لا ينبغي أن يجعل نفسه مصدر الهداية، بل الوحي. قيمته بقدر أمانته للنص، لا بقدر قدرته على جذب التصفيق. فإذا أصبحت الدعوة صناعةً للذات، ضاع المنذر بين ضجيج المنذر.

ثم تقول الآية:

(وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ).

إنه صمم القلب، لا الأذن؛ فقد كانت الأصوات تصل إليهم، لكنهم أغلقوا داخلهم الموضع الذي يتحول فيه الصوت إلى استجابة.

وقد يكون الإنسان سليم السمع، لكنه لا يسمع كلمةً تخالف هواه. يسمع ما يمدحه، ولا يسمع ما يصححه. يسمع الشائعة لأنها توافق خصومته، ولا يسمع البرهان لأنه يطالبه بالإنصاف. وهذه هي الصممية الأخلاقية: ألا تعجز الأذن عن التقاط الصوت، بل تعجز النفس عن قبول الحق.

والإنذار دعاء؛ لأنه ليس تشفيًا بالمصير، بل نداء نجاة. الرسول يذرهم لأنه يريد أن يخرجهم من النار، لا لأنه يريد أن يراهم فيها. وكل نصيحة صادقة تحمل في باطنها محبةً للمنصوح، ولو جاءت بلغة توقظه بعنف.

لكن الصمم يزداد عند لحظة الإنذار؛ لأن المنذر يشعر أن الكلام يمس مواضع تعلّقه ومصالحه. قد يستمع إلى الدين ما دام حديثًا عامًّا، فإذا اقترب من ظلمه أو ماله أو علاقاته أو غروره صار ثقیلاً.

إننا لا نعرف مقدار سماعنا للحق من جمال تأثرنا بالكلمات، بل من قدرتنا على قبولها حين تدين سلوكنا نحن.

ثم تصور السورة كيف ينهار التكذيب عند أول مسٍّ من العذاب:

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ).

(نَفْحَةٌ)؛ أقل إصابة تمر بهم من العذاب، مجرد نفحة تمسهم، فإذا ادعاءات القوة كلها تتهاوى، وإذا الألسنة التي كانت تسخر تعترف: (إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ).

ما أضعف الإنسان حين يواجه أثرًا من آثار القدرة! قد يجبر في الرخاء، فإذا أصابه ألم يسير عرف حدود جسده. وقد يتكلم عن استقلاله المطلق، فإذا ضاق نفسه لحظات تعلّق بكل سبب يرده إليه.

والنفحة من الرحمة تحيي العالم، والنفحة من العذاب تكشف هشاشة المتكبر. والأمر كله بيد الله؛ فما ينبغي لعبد أن يغتر بسلامته، ولا أن يأمن مكر ربه، ولا أن يجعل تأخر العقوبة دليلاً على عجزها عن بلوغه.

وعاد الاعتراف نفسه: (إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ). كأن المشكلة المركزية ليست نقص الأدلة، بل ظلم القلب؛ إذ حجب الحقيقة، ووضع الأشياء في غير مواضعها، ومنح المخلوق حق الخالق.

ثم يأتي مشهد الميزان:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

بعد الحديث عن ظلمهم، يظهر العدل الإلهي في أكمل صورته. (الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ)؛ موازين العدل التي لا تميل لمكانة، ولا ترهب سلطاناً، ولا تخدعها بلاغة، ولا تضيع عندها حقيقة.

موازين الدنيا قد تختل: يملك القوي أن يصوغ الاتهام، وقد يعجز المظلوم عن تقديم دليله، وقد تُشترى الشهادة، ويُطمس الملف، ويخرج الجاني في ثوب البريء. أما هناك، فالحاكم هو الذي شهد الفعل حين خفي، وعلم النية حين استترت، وحفظ كل أثر.

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا)؛ لا ينقص من حسنة أحد، ولا يضاف إليه ذنب لم يرتكبه، ولا يحمل وزر غيره. ذلك هو الأمان المطلق للمظلوم: لن يضيع شيء.

قد تنسى أنت الإساءة التي صنعتها تحت ضغط الأيام، لكن من تأذى بها ربما حمل أثرها سنين، والله لم ينسها. وقد تنسى خيراً صغيراً قدمته في لحظة إخلاص، ولا يعرفه أحد، لكن الله أحصاه.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا).

حبة صغيرة قد لا تلتفت إليها العين، لكنها لا تضيع في الحساب. كلمة لطف قلتها لمن كان على حافة الانكسار، خطوة مشيتها في حاجة، ألم كتّمته كيلا تظلم، نظرة غضضتها، درهم أنفقه في خفاء؛ كل ذلك يأتي.

وكذلك الأذى الصغير الذي استهان به صاحبه: سخرية جرحت، وإشاعة رُددت، وحق أُخر، ونظرة احتقار، وكلمة أوقدت خصومة. ما دام له وزن أخلاقي، فله حضور في الميزان.

إن الإنسان كثيراً ما يقيس الفعل بحجمه الظاهر، أما الله فيزنه بحقيقته ونيته وأثره. قد تكون كلمة واحدة أثقل من خطاب طويل، وقد تكون لقمة صغيرة أعظم من مال كثير؛ لأن الذي يرفع الأعمال ليس شكلها وحده، بل ما في القلب من إخلاص وما ترتب عليها من خير.

(وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ).

لا يحتاج الله إلى سجل يعينه على التذكر، ولا إلى شاهد يكمل علمه. هو سبحانه أحصى كل شيء علماً، وسيقيم الحساب عدلاً. وكفى بهذا أن يملأ القلب مراقبةً وطمأنينة: مراقبةً لأن الخفي معلوم، وطمأنينةً لأن الحق محفوظ.

ثم تعود السورة إلى موكب الأنبياء:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ).

أعطى الله موسى وهارون الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، ويضيء الطريق، ويذكر القلوب. وجمعت له ثلاثة أوصاف: الفرقان، والضياء، والذكر.

هو فرقان؛ لأن الإنسان لا يحتاج إلى معلومات فقط، بل إلى ميزان يميز به. كم من ثقافة واسعة لا تمنع صاحبها من الخلط بين المصلحة والحق، وبين النجاح والنجاة! العلم الذي لا يمنحك فرقاناً قد يزيد أدواتك، لكنه لا يهدي اتجاهك.

وهو ضياء؛ لأن الباطل ظلمة، ولو ازدانت طرقه بالأضواء. قد يرى الإنسان الأشياء المادية كلها، لكنه لا يعرف أين يضع قدمه أخلاقياً. والوحي لا يلغي عينيه، بل يمنحه النور الذي يرى به ما وراء المظهر.

وهو ذكر؛ لأن القلب ينسى. ليست مشكلتنا أننا لم نسمع الحق دائماً، بل أننا سمعناه ثم غطته هموم الحياة وشهواتها. لذلك يتكرر القرآن في تذكيره؛ لا لأن الحقيقة تتغير، بل لأن الغفلة تتجدد.

لكن الانتفاع بهذا كله يكون (لِّلْمُتَّقِينَ)؛ الذين يحملون في قلوبهم حذراً من مخالفة الله، واستعداداً لقبول هداة. الكتاب واحد، لكن القلوب ليست واحدة. كالمطر ينزل واحداً، فتخرج به أرض نباتاً، ولا تزيد به الصخرة إلا بللاً على سطحها.

ثم تصف المتقين:

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفِقُونَ).

يخشون ربهم بالغيب؛ حين لا تراهم العيون، وحين لا تكون السمعة مهددة، وحين يستطيعون المعصية دون افتضاح بشري. هناك يظهر صدق التقوى؛ لأن الامتناع أمام الناس قد يكون حياءً منهم أو خوفًا على الصورة، أما الامتناع في الخفاء فهو شهادة أن الله حاضر في القلب.

ومن معاني الغيب أنهم يخشونه مع أنهم لم يروه، فقد دلّتهم عليه آياته، وصدقوا خبره. لم يجعلوا الحس حدود الحقيقة، بل علموا أن عدم رؤية الشيء لا تعني عدم وجوده؛ فهم يتعاملون مع وعد الله ووعيده كأن الآخرة قائمة أمامهم.

(وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفِقُونَ)؛ خوفهم ليس صراخًا يشلهم، بل إشفاق يحملهم على الاستعداد. الخوف الذي يدفع إلى العمل رحمة، أما الخوف الذي يقود إلى اليأس فليس من فقه أسماء الله.

المتقون لا يغترون بأعمالهم؛ لأنهم يعرفون ضعفها أمام جلال الله، ولا يقنطون من رحمته؛ لأنهم يعرفون سعتها. يمشون بين مهابة الحساب وحسن الظن برب الحساب.

ثم يقول تعالى عن القرآن:

(وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ).

(هَذَا)؛ كأن القرآن حاضر بين الأيدي، قريب لا يحتاج إلى رحلة بحث بعيدة. وهو ذكر يوقظ ما غفل عنه الإنسان من ربه ونفسه ومصيره. وهو مبارك؛ كثير الخير، نامي الأثر، لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد هداياته.

البركة أن يعطي الشيء فوق ما توحى به صورته. سورة قصيرة قد تعيد بناء إنسان، وآية واحدة قد تنتشل قلباً من هاوية، ومجلس قرآن قد يغيّر مسار عمر. يدخل القرآن إلى النفس فيبارك وعبها، وإلى الوقت فيبارك العمل، وإلى المجتمع فيمنحه ميزاناً يحفظه من التآكل.

وبركة القرآن ليست في وضعه على الرفوف طلباً للحفظ المادي وحده، بل في إنزاله إلى القلب والحياة. إنه مبارك حين يُقرأ بتدبر، ويصدق خبره، ويُطاع أمره، وتقام به الموازين. أما أن يُزَيّن به المكان ويُعزل عن القرار، فذلك احترام للصورة مع هجرٍ للرسالة.

(أَنْزَلْنَاهُ)؛ فالقرآن ليس إنتاجاً أرضياً صعد من تجربة بشرية، بل هدى أنزله الله؛ ومن عرف مصدره عرف كيف يتلقاه. لا يقف أمامه موقف المستهلك الذي يختار منه ما يوافقه، بل موقف العبد الذي يعلم أن المتكلم به أعلم به من نفسه.

ثم يأتي السؤال: (أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)؟

كيف يُنكر نورٌ يكشف أمراضكم بهذا العمق، ويجمع شتات وجودكم، ويربط الأرض بالسماء، واللحظة بالأبد، والعمل بالميزان؟ وكيف يُعرض عن كتاب يحمل البركة، ثم يُبحث عن الطمأنينة في أفكار تزداد بها الروح تيهًا؟

لقد بدأ هذا المقطع بسؤال الحراسة: من يكلؤكم؟ وانتهى بذكر الكتاب المبارك. وكأن أعظم صور حفظ الله للإنسان ليست حفظ جسده وحده، بل حفظ قلبه بالوحي. قد ينجو الجسد من الخطر، لكن القلب يهلك بالشهوة والضلال. وقد يفقد المؤمن شيئًا من الدنيا، بينما يحفظ الله له إيمانه؛ فيكون قد حفظ له أثمن ما يملك.

وحين يقرأ الإنسان القرآن على أنه ذكر مبارك، لا تعود الآيات معلومات بعيدة، بل حراسةً داخلية: تحرسه من الغرور عند النعمة، ومن القنوط عند الشدة، ومن الظلم عند القوة، ومن الذل عند الضعف، ومن الضياع حين تتكاثر الطرق.

إن الرحمن يكلؤنا في الليل والنهار بحفظه، ويكلأ أرواحنا بالوحي؛ ثم يضع يوم القيامة موازين لا تضيع عندها حبة خردل. فمن عاش تحت حراسة الله، واستضاء بكتابه، وخشيه بالغيب، لم يخف أن يظلمه الحساب؛ وإنما يخشى أن يصل إلى الميزان بقلبٍ أعرض عن النور الذي كان بين يديه.

الفصل التاسع

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ

فَتَىٰ وَاحِدٌ يُوَقِّظُ أُمَّةً نَائِمَةً بَيْنَ أَقْدَامِ الْأَصْنَامِ

بعد أن ذكرت السورة ما آتاه الله موسى وهارون من الفرقان والضياء والذكر، فتحت صفحة إبراهيم عليه السلام؛ لا لتروي حكاية تحطيم أصنام فحسب، بل لتكشف كيف يُبنى الإنسان الراشد في مجتمعٍ ورث الضلال حتى حسبه حقيقةً لا تُناقش:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ).

قبل أن يحمل إبراهيم الفأس بيده، آتاه الله الرشد في قلبه. فالمعركة مع الأصنام لا تبدأ عند الحجر، بل عند الوعي الذي يرفض أن يمنح الحجر قداسةً لا يستحقها.

والرشد أكثر من معرفة الصواب؛ إنه القدرة على اختيار الصواب والثبات عليه، وحسن تقدير الأشياء ووضعها في مراتبها. قد يملك الإنسان معلومات كثيرة ولا يكون راشداً؛ لأنه يستخدم معرفته لخدمة هواه، أو يعرف الحق ثم يعجز عن دفع ثمنه.

إن الرشد علمٌ يهدي الإرادة، وبصيرةٌ تتحول إلى موقف. هو أن ترى ما لا تراه الجماعة حين يعميها التوارث، وأن تملك شجاعة السؤال حين يصبح السؤال جريمة اجتماعية.

قال تعالى: (أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ)؛ فالرشد عطية من الله، لكنه عطية يجد أثرها من صدق في طلب الحق، ولم يبع فطرته لرضا الجماعة. وكم من شخص عاش بين الأصنام نفسها التي عاش إبراهيم بينها، لكنه لم ير فيها ما رآه إبراهيم؛ لأن العيون قد تتشابه، أما القلوب فتختلف.

ثم قال: (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ). الله يعلم موضع الرسالة، ويعلم نقاء القلب القادر على حملها، ويعلم من يستطيع أن يقف وحده ولا تتحول وحدته إلى شك في الحقيقة.

لم يكن إبراهيم مشهوراً حين اختاره الله في أعين قومه، ولم تكن وراءه جموع ولا مؤسسات، لكن الله كان عالماً بما في هذا القلب من قابلية لحمل أمة كاملة. قد ينظر الناس إلى إنسان فيرون فرداً ضعيفاً، ويرى الله فيه مشروعاً يمتد أثره في القرون.

لا تستمد القيمة من عدد الذين يعرفونك، بل من الحقيقة التي يعلمها الله عنك.

ثم تظهر أولى علامات الرشد في السؤال:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ).

لم يبدأ إبراهيم بسباب قومه، بل بسؤال يهز المسلمة:

(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ)؟

إنهم يعرفون ماهيتها المادية، لكنه يسأل عن معناها الذي منحوه لها: ما حقيقتها؟ من أين اكتسبت هذه القداسة؟ وبأي برهان تحولت من حجارة منحوتة إلى آلهة تعكفون عندها؟

السؤال الصادق أول معولٍ يسقط في جدار الباطل. فكثير من الأفكار لا تعيش لأنها قوية، بل لأن الناس توقفوا عن سؤالها. تحيط بها هيبة الزمن، ويغطيها غبار العادة، حتى يبدو الاقتراب منها خروجًا على المجتمع.

لم يقل إبراهيم: ما هذه الآلهة؟ بل سماها باسم حقيقتها: **(الْتَّمَائِيلُ)**. نزع عنها القلب الذي منحها القوة، وردّها إلى مادتها الأولى. فالتحرر يبدأ أحيانًا بإعادة تسمية الأشياء: هذا ليس إلهًا بل تمثال، وليس مقدسًا بل عادة، وليس حقًا بل مصلحة لبست ثوب الحق.

الباطل يحب الأسماء الضخمة؛ لأنها تمنحه من الهيبة ما لا تمنحه إياه حقيقته. فإذا نزعت عنه اللغة المزيفة بدا هشًا كما هو.

ثم قال:

(الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ).

العكوف دوام الإقامة والملازمة. لم تكن أصنامهم قطعًا ساكنة فحسب، بل مراكز تدور حولها حياتهم، ويستهلكون عند أقدامها وقتهم وخوفهم ورجاءهم.

ولكل عصر تماثيله التي يعكف الناس حولها، وإن تغيرت الأشكال. وقد يعرف الإنسان أن شيئًا لا ينفعه، ثم يواصل العكوف عليه: شاشة تلتهم عمره، ورأي عام يستهلك وعيه، وخصومة يقيم عندها قلبه، وماضٍ يؤذيه لكنه يرفض مغادرته.

العكوف هو أن تمنح شيئاً حضوراً متواصلًا في قلبك حتى يضيق القلب عن ربه ورسالته. وقد لا تسجد له بجبهتك، لكنك تسجد له بوقتك؛ والوقت صورة من صور العمر، وما تمنحه أكثر عمرك تكشف به عن بعض ما تعظمه حقًا.

فماذا كان جوابهم؟

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ).

لم يجيبوا عن سؤال: ما هذه التماثيل؟ ولم يقدموا دليلًا على قدرتها أو استحقاقها العبادة. كل حجتهم أنهم وجدوا الآباء يفعلون ذلك.

إنهم لم يقولوا: سمعنا، أو نفعتنا، أو أوحى الله إلينا بعبادتها. قالوا: (وَجَدْنَا آبَاءَنَا). انتقلوا من فحص الفكرة إلى الاحتماء بالنسب.

وهذا من أقدم سجون العقل: أن تتحول محبة الآباء إلى تعطيل لحق السؤال. فالقرآن لا يعلم الإنسان احتقار آبائه، وإنما يمنعه من منحهم العصمة. البرّ بهم فضيلة، لكن اتباع الخطأ ليس من البر؛ لأن أعظم الإحسان إليهم ألا نكرر ما يضرهم عند الله.

الآباء أنفسهم كانوا أبناءً لآباء، فإذا كان كل جيل يقلد الذي قبله، فمن أين دخل البرهان؟ قد تمتد العادة مئات السنين، لكنها لا تصبح حقًا بطول عمرها. الزمن يراكم الغبار، لا الأدلة.

والتقليد يريح النفس من مسؤولية الاختيار. حين تقول: وجدت الناس يفعلون، تعفي نفسك من عناء التفكير ومن كلفة الموقف. لكن الحساب فردي، ولن يستطيع الإنسان أن يجعل آباءه جوابًا عن أفعاله بين يدي الله.

وليس تقليد الآباء مقصوراً على الاعتقاد الديني؛ فقد يرث المرء ظلمًا قُبليًا، أو تعصبًا سياسيًا، أو احتقارًا لفئة، أو خصومة لم يبدأها، ثم يحملها كأنها جزء من أمانته العائلية. يواصل جرحًا قديمًا لا لأنه رآه حقًا، بل لأنه وُلد في الجهة التي تصنعه.

الرشد الإبراهيمي لا يقطع صلة الإنسان بجذوره، بل ينقيها؛ يحب أهله، لكنه يحب لهم الحق أكثر من حبه لموافقته.

فواجههم إبراهيم بالحكم الذي لا يداهن:

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

لم تمنعه قرابة الأب ولا كثرة القوم من تسمية الضلال ضلالًا. فالحق لا يتغير احترامًا للأعمار، ولا يصبح الباطل صوابًا لأن كبارًا سبقونا إليه.

لكن إبراهيم لم يقل إن آباءهم بلا فضل في كل شيء؛ إنما حكم على هذه العبادة بأنها ضلال مبين. والعدل أن نميز بين الشخص وخطئه، فلا نجعل خطأه سببًا لمحو كل خير، ولا نجعل فضله سببًا لتقديس كل خطئه.

ليس التاريخ معصومًا، كما أن إنصاف التاريخ لا يعني إهدار فضله. نأخذ الحق ممن جاء به، ونرد الباطل ولو جاء على يد عظيم، دون أن نظلم الأشخاص أو نهدم مناقبهم كلها بسبب زلة.

وصف الضلال بأنه (مُبِينٌ)؛ لأن التمثال الذي يصنعونه ثم يعبدونه يحمل بطلانه في ذاته. لكن وضوح الباطل لا يعني أن المجتمع سيراه بسهولة؛ فقد تغطيه العادة بطبقات من الهيبة حتى يحتاج إلى فطرة إبراهيم كي تكشفه.

ففوجئ القوم؛ لأنهم لم يعتادوا أن يسمعوا أحدًا يتحدث بهذه الجدية:
(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ).

لم يستطيعوا تصور أن عبادتهم يمكن أن تكون موضع نقد حقيقي. ظنوا أن من يتحدث بهذا لا بد أن يكون لاعبًا؛ لأن المجتمع حين يعتاد الباطل طويلاً يصبح الحق في أذنه شاذًا.

قالوا: أهذه دعوى جدية، أم أنك تمزح؟

إنهم لم يسألوا: ما دليلك؟ بل تساءلوا عن جدية القائل. هكذا تفعل الأفكار الموروثة: تصنع حول نفسها من القداسة ما يجعل نقدها ضربًا من العبث في نظر أتباعها.

لكن إبراهيم جاءهم بالحقيقة التي تعيد السماء والأرض إلى مركز المشهد:

(قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ).

(بَلْ)؛ إضرابٌ يسقط تصوراتهم، ويفتح باب الحقيقة: ليست هذه التماثيل أربابكم، بل ربكم رب السماوات والأرض.

انتقل بهم من ضيق المعبد المملوء بالحجارة إلى اتساع الكون. قارنوا بين ما نحتته أيديكم وبين من فطر السماوات والأرض! بين صنم يحتاج إليكم كي تقيموه في مكانه، ورب أقام الأفلاك وحفظها! بين حجر لا يرى عابده، وخالق يعلم السر وأخفى!

(الَّذِي فَطَرَهُنَّ)؛ أوجدهن على غير مثال سابق، وشقّ الوجود بإرادته. فمن خلق هو الذي يستحق أن يُعبد، ومن رزق هو الذي يستحق أن يُشكر، ومن بيده المصير هو الذي يستحق أن يُطاع. ثم قال إبراهيم:

(وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ).

ليست الحقيقة عنده احتمالاً فلسفياً، بل شهادة قائمة في قلبه. والشاهد لا يكرر ما سمعه بلا يقين؛ إنه يتكلم عن أمرٍ استقر عنده حتى أصبح مستعداً لتحمل تبعاته.

وكانت شهادته أمام أمة كاملة، وهذا يعلمنا أن قيمة الشهادة ليست بكثرة الموافقين، بل بوضوح المشهود به. قد يكون الإنسان وحده شاهداً للحق في مجلس ممتلئ بالصمت، فلا تجعل كثرة الصامتين شهادته باطلة.

ثم انتقل إبراهيم من الحجة القولية إلى الصدمة العملية:

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ).

أقسم أن يكيد الأصنام بعد انصراف قومه. لم يكن كيده عدواناً على بريء، بل كشفاً لعجز ما عُبد من دون الله، وزلزلة للمشهد الذي أغلقوا دونه أسماعهم.

لقد قال لهم إن الأصنام لا تملك شيئاً، فلم يسمعوها. فأراد أن يضعهم أمام عجزها في صورة لا تستطيع العادة إخفاءها: آلهة تُكسر ولا تدافع عن نفسها، فكيف تدافع عن عابديها؟

وفي الفعل الإبراهيمي شجاعة، لكنه ليس إذناً للفوضى الفردية أو الاعتداء الذي يفتقد ميزان الشرع والحكمة. إنه موقف نبي مؤيد بالوحي، في سياق إقامة حجة مخصوصة على قومه. والعبرة أن الباطل يحتاج أحياناً إلى حدثٍ يكشف تناقضه، لا أن تُتخذ القصة مبرراً لأهواء لا تضبطها بصيرة النبوة.

(فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ).

حوّلها إلى قطع متناثرة، وأبقى كبيرها. كان المشهد وحده سؤالاً صارخاً: أين كانت قوى هذه الآلهة حين امتدت إليها يدٌ واحدة؟ لماذا لم يحم الصغير الكبير، أو الكبير الصغير؟ وكيف تُعبد تماثيل لا تملك حتى بقاء صورتها؟

(إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ)؛ تركه كي يرجعوا إليه بالسؤال، فتقوم الحجة من داخل معتقدهم. إن كان كبيراً حقاً فليسالوه عما حدث، وإن كان لا ينطق فقد اعترفوا بعجزه.

ما أذكى الحجة حين تجعل الخصم يرى التناقض بنفسه! ليس أعظم الإقناع أن تقدم للإنسان الجواب، بل أن تقوده إلى السؤال الذي يهدم باطله من داخله.

(لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)؛ قيل يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه، وقيل إلى كبير الأصنام، وقيل يرجعون إلى رشدهم ويدركون الحقيقة. والمعاني تتساند في المشهد: سيعودون إلى المكان، ثم يواجهون الصنم الكبير، ولعل هذه المواجهة تعيدهم إلى عقولهم.

وكان الذي يحتاج إلى الرجوع في الحقيقة ليس أجسادهم، بل فطرتهم. فالفطرة تعرف أن العاجز لا يكون إلهاً، لكن الموروث كان يثقل فوقها. جاءت ضربة إبراهيم لتكسر غطاء العادة، لعل صوت الفطرة يظهر من تحته.

فلما عادوا ورأوا أصنامهم حطامًا، صرخوا:

(قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ).

ما أعجب انقلاب الموازين! سمو إبراهيم ظالمًا لأنه كسر حجرًا، ولم يسموا أنفسهم ظالمين حين صرفوا العبادة لغير الله. رأوا العدوان على التمثال، ولم يروا العدوان على الحقيقة.

وهذا يحدث حين تختل المعايير: قد يغضب المجتمع لرمز أكثر مما يغضب لإنسان يُظلم، ويحمي صورةً مقدسة في وعيه بينما يهدر القيم التي تزعم الصورة تمثيلها. قد يبكي على حجر، ولا يتحرك لدم.

قالوا: (بِآلِهَتِنَا)، فأضافوها إلى أنفسهم، وكأن الإضافة تكشف أصل الحكاية: إنها آلهة صنعوها واختاروها ونسبوها إليهم. أما الإله الحق فلا يملكه قوم ولا يحتكره شعب؛ بل الخلق كله ملكه.

(قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ).

(فَتًى)؛ شاب واحد أفلق بنيةً وثنية كاملة. لم يكن صاحب سلطة، ولا كبيراً في القوم، لكن الفكرة الصادقة تمنح حاملها عمراً أوسع من عمره، وقوةً أكبر من جسده.

كم يحتقر المجتمع صوت الشباب لأنه لم يجمع سنوات الكبار، مع أن الرشد ليس دائماً تابعاً للعمر! قد يشيب الرأس وتبقى الروح أسيرة ما وجدت عليه الآباء، وقد يكون الفتى أقرب إلى الفطرة لأنه لم يترك العادة تتكلس في قلبه.

وقالوا: (يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ)، كأنه كان مجهولاً في ميزان الشهرة، لكنه معلوم عند الله: (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ). بين العبارتين مسافة تكشف اختلاف الموازين؛ عند الناس فتى يقال له إبراهيم، وعند الله خليل يحمل رشد أمة.

لا تحزن إن جهل الناس اسمك ما دام الله يعلم صدقك. فالشهرة لا تصنع الرسالة، وقد يبدأ أعظم الأثر من شخص لا يلتفت إليه المجتمع إلا حين تهتز أمامه أصنامهم.

(قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ).

أرادوا محاكمته علناً، ليشهد الناس إدانته وعقوبته. ظنوا أنهم سيجعلونه عبرةً لمن يفكر في التمرد على المقدسات الزائفة، لكن الله جعل المنصة نفسها منبراً للتوحيد.

كم من خصوم الحق جمعوا الناس ليفضحوا صاحبه، فتحولت المحاكمة إلى فضيحة للباطل! حين يكون صاحب الحق ثابتاً، قد يصبح المكان الذي أُعد لإسكاته أوسع مكان يسمع فيه صوته.

أرادوا أن يشهد الناس على جريمة إبراهيم، فإذا بالناس سيشهدون على عجز آلهتهم. فالحق لا يخاف العلانية، لأن النور لا يخسر حين تُفتح النوافذ؛ إنما الباطل هو الذي يحتاج إلى أن تمنع الأسئلة، وأن تحدد للناس ما يجوز أن يفكروا فيه.

(قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمَ).

وُضع إبراهيم أمام الجماهير، والسؤال يطلب اعترافاً مباشراً. لكن إبراهيم رد بحجة تُرجعهم إلى أصل التناقض:

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ).

ليس المقصود تقرير أن الصنم فعل ذلك على الحقيقة؛ فالقرينة ظاهرة في قوله: (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ). إنه إلزام جدلي يكشف فساد اعتقادهم: إذا كنتم ترونها آلهة، فاسألوها. وإن كنتم تعرفون أنها لا تنطق، فكيف تعبدونها؟

لقد رد القضية إلى الاختبار البسيط الذي يهربون منه: هل تنطق؟

أحياناً يحتاج الوهم الضخم إلى سؤال صغير فقط. تتراكم حوله الأساطير والطقوس والحراس، ثم يأتي السؤال الفطري فيكشف الفراغ كله.

وكان للحجة أثرها الأول:

(فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ).

هذه من أبهى لحظات القصة: (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ).

كأنهم كانوا غائبين عنها، مستعيرين عقول آبائهم وأعين جماعتهم، فلما واجهتهم الحجة عادوا لحظةً إلى داخلهم، حيث الفطرة التي لم تمت تمامًا.

إن الإنسان قد يعيش بعيدًا عن نفسه، يفكر بما يفكر به الناس، ويحب ما يطلبون منه حبه، ويكره ما لقنوه كراهيته. والرجوع إلى النفس ليس اتباع الهوى، بل تحرير الوعي من الضجيج حتى يسمع الفطرة والعقل.

وفي تلك اللحظة اعترفوا: (إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ). أدركوا أن الظلم ليس في تحطيم الصنم، بل في عبادته. وهذا انتصار الحجة؛ أن يتكلم ضمير الخصم بلسان الحق.

لكن لحظات اليقظة لا تكفي ما لم تتحول إلى قرار. فقد يعود الإنسان إلى نفسه، ويرى خطأه، ثم يخاف كلفة الاعتراف فيفر منها إلى ظلام أشد.

وهذا ما حدث:

(ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ).

لم يثبتوا على رجوعهم، بل نكسوا على رؤوسهم؛ انقلبوا من لحظة البصيرة إلى هاوية المكابرة. والتعبير يرسم حركة معنوية كأن الإنسان كان واقفاً على قدمي فطرته، ثم قلب رأساً على عقب.

قالوا لإبراهيم: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ).

لقد نطقوا بالحجة على أنفسهم دون أن يشعروا. اعترفوا بأن آلهتهم لا تتكلم، ومع ذلك لم يصلوا إلى النتيجة التي تفرضها مقدماتهم.

وهنا يظهر الفرق بين نقص العقل وفساد الإرادة. لم يكونوا عاجزين عن الفهم؛ فقد فهموا واعترفوا. لكنهم لم يريدوا الالتزام بما فهموا. قد يبلغ البرهان غايته في العقل، ثم يقف عند باب القلب لأن الكبر أو المصلحة أو الخوف يمنعه من الدخول.

أخطر الضلال ما جاء بعد المعرفة. فالجاهل قد يتعلم، أما من عرف ثم نكس فقد جعل إرادته خصماً للحقيقة.

فانطلق صوت إبراهيم بالحكم القاطع:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۚ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

إذا كانت لا تنطق، ولا تدفع عن نفسها، ولا تنفع ولا تضر، فما الذي بقي من معنى الألوهية؟

(أَفَبِ لَكُمْ)؛ كلمة تضجر من سقوط العقل إلى هذا الحد، ومن إصرارهم على ما شهدوا هم ببطلانه. وليست نفرة إبراهيم من أشخاصهم لمجرد ذواتهم، بل من هذا الإهدار المهين لكرامة الإنسان؛ خُلِقَ بعقل وقلب، ثم يضعهما تحت أقدام حجر.

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)؟

عاد السؤال إلى العقل، لأن عبادة غير الله ليست خطأ عقدياً فحسب، بل انتكاس في وظيفة العقل. والعقل الذي لا يقود إلى معرفة عجز المخلوق وافتقاره لم يؤد وظيفته كاملة، مهما أجاد الحساب والصناعة.

إن الإنسان حين يعبد ما لا ينفع ولا يضر يهدر شرفه الذي منحه الله. والتوحيد ليس تكريماً لله — فالله غني عن العالمين — بل تكريم للإنسان أيضاً؛ إذ يرفعه عن السجود لما هو دونه، ويربطه بخالق الكون.

فلما عجزوا عن الحجة انتقلوا إلى القوة:

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ).

هكذا ينكشف الباطل حين يخسر منطق: يبدأ بالجدل، فإذا غلب فيه استدعى النار. كانوا مطالبين بإثبات قدرة الآلهة، فإذا بهم يطلبون من أنفسهم أن ينصروها!

(وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ)؛ عبارة تهدم ألوهيتها وهي تريد تثبيتها. الإله الذي يحتاج إلى أتباعه كي ينصروه ليس إلهاً، والمقدس الذي لا يبقى إلا بقمع الأسئلة لا يملك حقيقةً تحميه.

وفي كل عصر، حين تعجز الفكرة عن الدفاع عن نفسها بالبرهان، قد يلجأ أصحابها إلى إسكات السائل. يظنون أن حرق الجسد يحرق السؤال، وأن سجن الصوت يلغي الحقيقة. لكن الأفكار الصادقة كثيرًا ما تخرج من النار أوسع انتشارًا.

قالوا: (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)؛ حرّض بعضهم بعضًا، لأن الفرد قد يتردد في الجريمة، لكن الجماعة تمنحه شجاعة زائفة. يتوزع الإثم على الوجوه فيتوهم كل واحد أن مسؤوليته أقل، مع أن الحساب سيعيد الفعل إلى كل يد ولسان وقلب شارك فيه.

اجتمعت قوة المجتمع كله حول النار، ووقف إبراهيم وحده في ظاهر الأرض. لكن ميزان القوة الحقيقي لم يكن بين فرد وأمة، بل بين الخلق والخالق:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ).

ما أبسر المستحيل حين يأتي أمر الله!

النار التي خلقت فيها خاصية الإحراق لم تخرج عن عبوديتها لحظة واحدة. لم تكن إلهاً مستقلاً بقانونها، بل مخلوقةً يعمل أثرها بإذن الله. فلما جاءها الأمر: (كُونِي)، تحولت من أداة هلاك إلى فضاء نجاة.

ولم يقل: كوني بردًا فقط؛ فقد يكون البرد مؤذيًا، بل قال: (بَرْدًا وَسَلَامًا). نُزعت عنها حرارة الإحراق، وحُفظ إبراهيم من أذى البرودة. إنها نجاة تامة، موزونة بدقة الرحمة.

قد لا يطفئ الله النار دائماً، لكنه يستطيع أن يغيّر علاقتها بعبده؛ يترك المحنة قائمةً في ظاهرها، ثم ينزل في القلب سكينَةً تجعلها سلامًا. قد لا يزيل سبب الخوف، لكنه يزيل سلطان الخوف. وقد لا يخرج المؤمن فوراً من الضيق، لكنه يفتح له داخله موضعاً من الأُنس لا تصل إليه النار.

إن المؤمن لا يعبد القوانين، بل يعبد رب القوانين. يأخذ بالأسباب لأنه مأمور، لكنه يعلم أن السبب لا يعمل استقلالاً عن الله. النار تحرق عادةً، والبحر يغرق عادةً، لكن النار لم تحرق إبراهيم، والبحر لم يغرق موسى؛ ليظل قلب المؤمن متعلقاً بالمسبب وهو يحسن التعامل مع الأسباب.

ولم تحتج نجاة إبراهيم إلى جيوش تقاتل قومه، ولا إلى مطر يطفئ نارهم؛ كلمة واحدة من الله أعادت ترتيب المشهد. حين يكون الله معك، لا يلزم أن يزيل قوة عدوك؛ قد يترك له ناره ثم يسلبها القدرة عليك.

ثم تختتم السورة هذه الجولة:

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ).

كان لهم كيد، وكانت لله إرادة. خططوا ليجعلوا إبراهيم عبرةً لمن يقترب من أصنامهم، فجعلهم الله عبرةً لكل من يقرأ القصة. أرادوا أن يمحوا دعوته بالنار، فإذا النار نفسها أصبحت من أعظم آيات دعوته.

وهذه هي الخسارة: ألا يفشل مشروع الباطل فقط، بل يتحول ما صنعه لإهلاك الحق إلى أداة تكشف عجزه. جمعوا الحطب، وأوقدوا النار، وحشدوا الناس، ثم خرج إبراهيم سالمًا، وبقيت أجيالهم كلها في ذاكرة البشرية خلف المشهد مهزومة.

قال تعالى: (الْأَخْسَرِينَ)، لا الخاسرين فقط؛ لأنهم خسروا الحجة، وخسروا هيبة الآلهة، وخسروا كيدهم، وخسروا الذكر الحسن، ثم ينتظرهم حساب الآخرة إن ماتوا على كفرهم.

قد يبدو صاحب الحق خاسرًا في اللحظة الأولى؛ يُطرد أو يُحاصر أو يُلقى في النار. لكن الخسارة لا تقاس بحرارة اللحظة، بل بنهاية الطريق. وإبراهيم في النار كان هو المنتصر، وقومه حولها كانوا هم المحترقين في الحقيقة؛ احترقت حجتهم، وانكشف صنمهم، وسُجل عارهم في الكتاب الذي يُتلى.

إن قصة إبراهيم هنا ليست حديثًا عن أصنام قوم مضوا، بل امتحان لأصنامنا نحن.

ما الذي لا نستطيع نقده لأن المجتمع أحاطه بالقداسة؟

ما الذي وجدنا عليه آباءنا ولم نسأل عن برهانه؟

ما الذي نعرف عجزه، ثم نعكف عنده بقلوبنا وأوقاتنا؟

وما الحقيقة التي رجعنا عندها لحظةً إلى أنفسنا، ثم نُكسنا على رؤوسنا لأن الاعتراف بها كان مكلفًا؟

إن الرشد الإبراهيمي هو أن يحب الإنسان الحق أكثر من ألفته، وأن يقدّم شهادة الفطرة على ضغط الجماعة، وأن يحطم الصنم في قلبه قبل أن يتحدث عن أصنام الآخرين.

وقد لا تكون نار إبراهيم اليوم لهبًا حسيًّا؛ قد تكون سخرية المجتمع، أو وحشة الطريق، أو خسارة المكانة، أو قطيعة المقربين. لكن الذي قال للنار: (كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا) لا يزال ربًّا للنار وللقلوب وللأقدار.

فلا تخشَ نارًا أوقدها الناس ما دمت لم توقدها أنت في ضميرك بخيانة الحق. وقد يقف العالم كله في جهة، وتقف وحدك في الجهة الأخرى؛ ثم تكون وحدتك مع الله أمةً، وتكون كثرتهم بغيره حطام أصنامٍ ينتظر ضربة الحقيقة.

الفصل العاشر

وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا

الهجرة من ضيق الوثنية إلى سعة الرسالة

خرج إبراهيم عليه السلام من النار سليم الجسد، لكن النجاة لم تتوقف عند خمود اللهب. فإله لا ينجي أوليائه من الشيء فقط، بل ينجيهم إلى شيء؛ يخرجهم من موضع المحنة ليفتح أمامهم أفق الرسالة:

(وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ).

نجا إبراهيم من النار، ونجا لوط معه من البيئة التي طبقت على الفطرة بالتكذيب. وكانت وجهة النجاة إلى الأرض المباركة؛ أرض الشام التي جعلها الله موطنًا لعدد كبير من الأنبياء، ومسرحًا لرسالات امتد أثرها إلى العالمين.

إن النجاة في القرآن ليست دائمًا بقاءً في الموضع نفسه مع تغيير الظروف، بل قد تكون خروجًا كاملاً منه. قد يكون باب الرحمة في أن يغادر الإنسان مكانًا أحبه، أو جماعة ألفها، أو منزلة اعتادها؛ لأن البقاء صار يستهلك دينه وروحه ورسالته.

الهجرة ليست حبًا في الفراق، بل ولاءً للحقيقة حين يضيق عنها المكان. إبراهيم لم يخرج لأن قلبه خفيف الصلة بأرضه وأبيه وقومه، وإنما خرج لأن الأرض اتسعت للأصنام وضائق بالتوحيد. وحين يصبح الموطن سجنًا للضمير، يعلمنا إبراهيم أن الأرض كلها لله، وأن الانتماء الأكبر ليس للتراب وحده، بل لرب التراب.

وقد يهاجر الإنسان بجسده من بلد إلى بلد، وقد يحتاج إلى هجرةٍ داخليةٍ أشق: أن يخرج من عادةٍ استعبدته، أو صحبةٍ تضعف إيمانه، أو صورة قديمة عن نفسه، أو خوف جعله يقيم عند حدود العجز.

كم من إنسان خرج من المكان وبقي المكان في قلبه، وكم من إنسان ظل في موطنه لكنه هاجر إلى الله بوعيه وسلوكه! فالهجرة الحقيقية أن تنتقل من سلطان ما سوى الله إلى سلطان الله، ومن ضيق الهوى إلى سعة العبودية.

قال تعالى: (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ).

لم تكن البركة حكرًا على ساكنيها، بل (لِلْعَالَمِينَ)؛ لأن البركة الحقّة تفيض وتتجاوز حدود صاحبها. الأنبياء الذين قاموا فيها لم يحملوا نورًا لأنفسهم وحدهم، بل خرجت من آثارهم هدايات بلغت أممًا وأجيالًا بعيدة.

وهكذا ينبغي أن تكون بركة الإنسان: ألا تتحبس فيه. فإذا زاد علمه زاد نفع الناس به، وإذا وسّع الله عليه وسّع على غيره، وإذا ذاق الهداية صار رحمةً لمن حوله. النعمة التي لا تتجاوز صاحبها قد تكون سعةً، لكنها لم تبلغ تمام البركة.

والبركة ليست كثرةً حسابية فقط؛ بل خيرٌ يضعه الله في الشيء فيؤدي أثرًا يفوق حجمه. قد يكون العمر قصيرًا وبارك الله فيه فيملؤه بأعمال تعيش قرونًا، وقد يكون المال قليلًا لكنه يسد حاجاتٍ عظيمة، وقد تكون الكلمة موجزة لكنها تفتح في القلب بابًا لا تغلقه الأعوام.

إبراهيم فرد خرج مهاجرًا، لكن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب، وجعل ذكره جزءًا من صلاة الملايين. حين يبارك الله في خطوة صادقة، لا يستطيع صاحبها أن يتخيل مدى امتدادها.

خرج إبراهيم من قومه مستضعفًا في نظر الأرض، فإذا خروجه بدايةً عمران روحي للعالم. وهنا تتبدل مقاييس الربح والخسارة: ربما عدّ قومه رحيله تخلصًا من فتى أفلق أصنامهم، ولم يعلموا أن التاريخ هو الذي كان يرحل عنهم معه.

ثم يقول تعالى:

(وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ).

بعد أن ترك إبراهيم قومه لله، وهبه الله أسرةً تحمل رسالته. خرج من بيئة نسبية كبيرة رفضت دعوته، فعوّضه الله بنسب إيماني يمتد في الزمان.

(وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)؛ والولد هبة، لا حقًا يفرضه الإنسان على الأقدار. كم من إنسان يظن أن الأسباب تمنحه النتائج، وينسى أن الأسباب أبواب، أما العطاء فمن الله. قد تكتمل المقدمات ولا تأتي الثمرة، وقد تنقطع الأسباب ثم يخلق الله من العقم حياة.

ووهب يعقوب (نَافِلَةً)؛ زيادةً في الفضل فوق المطلوب، فإبراهيم سأل الذرية الصالحة، فجاءته البشارة بالابن والحفيد. عطاء الله قد يجيب الدعاء، ثم يفيض فوق حدوده. يسأله العبد بابًا، فيفتح له طريقًا؛ يسأله نعمةً، فيجعل منها نسلًا من النعم.

لكن الجمال الأعظم ليس في مجرد كثرة الذرية، بل في قوله:
(وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ).

فليست كل ذرية امتدادًا حقيقيًا للإنسان. قد يحمل الولد اسم أبيه ولا يحمل قيمه، ويستمر النسب في الجسد وينقطع في الروح. وإنما تكتمل الهبة حين تكون الذرية صالحة؛ تحمل الأمانة، وتزيد الخير، وتكون للوالدين بعد موتهما دعاءً وعملاً ممتدًا.

كم يحرص الإنسان على مستقبل ولده المادي: تعليمه، ومهنته، وماله، ومكانته؛ لكنه قد يغفل عن أعظم المستقبلات: مستقبل قلبه عند الله. يهيئ له أدوات العيش، ولا يهيئ له معنى الحياة.

إن صلاح الأبناء لا يُصنع بالأوامر وحدها، بل بصورة الدين التي يرونها في البيت. إذا رأوا الصدق حيًا في أبيهم، والرحمة في أمهم، والصلاة سكينَةً لا عقوبة، والقرآن خُلُقًا لا صوتًا فقط، تسرب الإيمان إلى قلوبهم من منافذ الحياة كلها.

ولا يملك الوالدان هداية القلب، فالهداية بيد الله، لكنهما يملكان أن يزرعا، ويدعوا، ويحسنوا القدوة، ويتركوا لله سرَّ الإنبات.

وقوله: (جَعَلْنَا صَالِحِينَ) يذكر بأن الصلاح توفيق من الله. لا يغتر صالح بصلاحه، ولا ينسبه إلى قوة نفسه وحدها؛ فلولاً أن الله هداه وثبته، لتنازعتهُ الأهواء كما تنازعت غيره.

ثم ارتقى بهم من الصلاح الشخصي إلى القيادة:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا).

لم يجعلهم الله صالحين منعزلين ينجون بأنفسهم فقط، بل أئمة يقودون غيرهم إلى الهدى. فتمام النعمة أن يتحول نور الإنسان إلى طريقٍ للآخرين.

لكن الإمامة هنا ليست لقبًا تشريفيًا، ولا مكانًا يرفع صاحبه فوق الناس، بل وظيفة ثقيلة: (يَهْدُونَ). الإمام في ميزان الوحي من يدل الناس على الله، لا من يدلهم على نفسه؛ ومن يحملهم نحو الحق، لا من يجعلهم جسرًا إلى مجده الشخصي.

كم من إنسان طلب موقع القيادة لأنه رأى فيها سلطةً ومكانةً، ولم ير أنها سؤال ومسؤولية! الإمامة ليست أن يتقدم الجسد الصفوف، بل أن يتقدم الخلق، وأن يسبق صاحبه إلى التضحية والعدل والصبر.

ثم قُيِّدَت الهداية بقوله: (بِأَمْرِنَا). لا يهدون بأهوائهم، ولا بمصالحهم، ولا بما تستحسنه الجماهير، بل بأمر الله. فالقائد الرباني لا يَخْتَرع للناس طريقًا من نفسه، وإنما يدلهم على الطريق الذي شرعه الله.

ومن أخطر انحرافات القيادة أن تتحول من خدمة الوحي إلى استعمال الوحي لخدمة القائد. يقتطع من الدين ما يثبت مكانته، ويسكت عما يحاسبه، ويطلب من الناس طاعةً لا يطالب مثلها لنفسه. أمام الله.

أما أئمة النبوة فكانوا أول من يخضع للأمر الذي يدعون إليه. لم يقفوا فوق الرسالة، بل تحت سلطانها. والناس إنما يتقون بالهداية حين يرون الدليل يمشي أمامهم مجسداً في حياة الداعي.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ).

ما أدق التعبير: (فِعْلَ الْخَيْرَاتِ)، لا مجرد الحديث عنها أو الإعجاب بها. الخير في القرآن حركة، لا زينة لغوية. قد يحفظ الإنسان فضائل كثيرة، ويكتب عنها، ويؤثر في الناس بوصفها، ثم لا تتحول في حياته إلى فعل.

والمسافة بين معرفة الخير وفعله هي موضع الامتحان. الجميع تقريباً يحب العدالة في صورتها المجردة، لكن الاختبار يبدأ حين تخالف العدالة مصلحته. والجميع يمدح العفو، حتى يقع الأذى عليه. والجميع يحتفي بالصدق، حتى يصبح الصدق مكلفاً.

وفعل الخيرات بصيغة الجمع يفتح أبواب الخير كلها: عبادة وإحساناً، علماً وعدلاً، كلمة طيبة ودفعاً للظلم، سترًا للضعيف وإغاثةً للمحتاج. فالخير ليس قالباً واحداً؛ قد يكون في موضع صمتاً، وفي موضع آخر كلمة عالية، وقد يكون عطاءً، وقد يكون منعاً يحمي من فساد.

والقلوب الربانية لا تكتفي بالسؤال: هل هذا مباح؟ بل تسأل: أين الخير الذي يمكن أن أفعله؟ إنها لا تعيش على حافة الحد الأدنى، بل تطلب الزيادة التي تقربها من الله وتنفع خلقه.

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ).

من بين الخيرات كلها خُصَّت الصلاة والزكاة بالذكر؛ لأنهما تجمعان صلة الإنسان بربه وصلته بالناس.

الصلاة تصحح الاتجاه العمودي للروح: من أنا أمام الله؟ والزكاة تصحح الاتجاه الأفقي للحياة: ماذا يجب عليّ تجاه عباد الله؟

إذا أقام الإنسان الصلاة ولم يبالِ بحقوق الناس، فقد نقص أثر الصلاة في خُلُقهِ. وإذا أعطى الناس لكنه انقطع عن ربه، فقد يتحول عطاؤه إلى مجد ذاتي أو وسيلة نفوذ. الدين يبني الإنسان من الجهتين: قلبًا ساجدًا ويدًا باذلة.

ولم يقل: أداء الصلاة، بل (إِقَامَ الصَّلَاةِ)؛ فالإقامة أوسع من مجرد الإتيان بالحركات. أن تقوم الصلاة في الوقت والقلب والخُلُق، وأن تصبح عمودًا يحمل اليوم، ومصدرًا يرد النفس إلى اتزانها كلما فرقته الحياة.

الصلاة لقاء متكرر يحرر الإنسان من تراكم الدنيا. يدخل إليها محملاً بالأسماء والمناصب والمخاوف، ثم يقف عبدًا بين يدي الله. يسجد فيضع أعلى مواضع جسده على التراب، فيرتفع باطنه عن كل ما سوى الله.

أما الزكاة فليست فضلًا من الغني يتكرم به، بل حق معلوم أعطاه الله للفقير في المال. إنها تنزع من الثروة وهم الملكية المطلقة، وتقول لصاحبها: أنت مستخلف فيما بيدك، ولست خالق النعمة ولا مالکها الأخير.

وفي الصلاة تزكية للنفس من الكبر، وفي الزكاة تزكية للمال من الشح، وبينهما يتطهر الإنسان من عبودية ذاته وعبودية ما يملك.

ثم ختم وصفهم:

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ).

هذه هي الكلمة التي تجمع كل ما سبق. كانوا صالحين، وأئمة، وفاعلي خيرات، ومقيمي صلاة، ومؤتي زكاة؛ لكن سر ذلك كله أنهم كانوا لله عابدين.

تقديم (لَنَا) يحمل معنى الإخلاص: لنا، لا للشهرة ولا للمكانة ولا لامتلاك قلوب الأتباع. فعلوا الخير لأن الله يحبه، لا لأن الناس سيكتبون أسماءهم فوقه.

وقد يقوم اثنان بالعمل نفسه، لكن بينهما عند الله ما بين السماء والأرض؛ أحدهما يريد وجه الله، والآخر يريد وجه الجمهور. صورة الفعل متشابهة، لكن جهة القلب مختلفة.

العبادة ليست ركناً مجاوراً لأعمالهم، بل الروح التي تسري فيها. الإمامة بلا عبودية تتحول إلى تسلط، والخير بلا عبودية قد يتحول إلى رياء، والصلاة بلا عبودية تصبح عادة، والزكاة بلا عبودية تصبح استعراضاً.

إن كل عمل يفقد وجهته إلى الله يفقد شيئاً من روحه، ولو ظل شكله قائماً.

ثم تنتقل السورة إلى لوط عليه السلام:

(وَلَوْطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ).

آتاه الله حكمًا وعلماً؛ بصيرةً يميز بها، وعلماً يعرف به الحق،
وقدرةً على وضع الحكم في موضعه. فالعلم بلا حكم قد يعرف أجزاء
الحقيقة ويعجز عن تنزيلها، والحكم بلا علم قد يتحول إلى طيش.
والنبوة تجمع نور المعرفة وحكمة التطبيق.

وكان لوط يعيش في قرية لم تكتف بوقوع الخبائث فيها، بل
صارت تعمل الخبائث؛ كأن الخبث تحول إلى نشاط جماعي وهوية
سائدة. الخطايا الفردية يمكن أن تبقى موضع خجل واستغفار، أما حين
يتبناها المجتمع، ويجاهر بها، ويدافع عنها، ويسخر ممن ينكرها، فإنه
ينتقل من ضعف الإنسان إلى حرب الفطرة.

ولم يسم القرآن هنا الخبيثة وحدها، بل جمعها: (الْخَبَائِثُ)؛ لأن
الانحراف إذا استُبيح قلماً يبقى معزولاً. حين يسقط حاجر الحياء من
الله، تتداعى حواجز أخرى. الفساد شبكة؛ يساند بعضه بعضاً، ويحتاج
لحمايته إلى كذبٍ وعنف واستهزاء وتطبيع.

ومن أخطر مراحل الفساد أن تتغير اللغة التي تصفه. يبدأ ذنباً
يخفيه صاحبه، ثم يصبح حقاً يطالب المجتمع بحمايته، ثم يُتهم المنكر
بالتخلف والعدوان. عندها لا يعود الصراع حول فعل منفرد، بل حول
الفطرة والميزان الذي تُقاس به الأفعال.

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَسْقَيْنَ).

الفاسق هو الخارج عن طاعة الله وحدوده، كالثمرة التي تخرج من قشرتها. خرجوا عن نظام الفطرة والوحي، ثم صنعوا لأنفسهم نظاماً يبرر خروجهم.

ووصفهم بأنهم قوم سوء يدل على أن السوء صار صفةً للجماعة الغالبة، لا زلة أفراد معدودين. ومع ذلك بقي لوط بينهم شاهداً على الحق؛ فلم تجعل كثرة المخالفين الباطل صواباً، ولم تجعل وحدته رأيه شاداً في ميزان الله.

في مجتمع تتفق أغليبيته على انحراف، يحتاج صاحب الفطرة إلى شجاعة مضاعفة؛ لأنه لا يقاوم الشهوة وحدها، بل يقاوم ضغطاً كاملاً يريد أن يجعله يشك في وضوح ما يرى.

لكن الله نجّاه من القرية. فالنجاة ليست انتصاراً على القوم بالحجة فحسب، بل حماية من المصير الذي صنعتُه أعمالهم. حين يعجز المؤمن عن إصلاح بيئةٍ أحكمت إغلاقها على الحق، قد تكون نجاته في أن يفصل مصيره عن مصيرها.

ثم يقول تعالى:

(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

لم يقل فقط: أخرجناه من القرية، بل: (أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا).

ما أوسع الفرق بين الخروج من الخبث والدخول في الرحمة! قد يخرج الإنسان من محنة، لكنه يظل يحمل آثارها في داخله؛ أما رحمة الله فتضمّد ما جرحته الطريق، وتمنح النجاة معناها الكامل.

والتعبير يصور الرحمة كأنها فضاء يدخل فيه العبد، فتحيط به من كل جهة. ليست لمسةً عابرة، بل مقامًا من الرعاية والأمان والقرب.

دخل لوط في الرحمة لأنه من الصالحين؛ لا بمعنى أنه اشترى الرحمة بعمله، فكل فضل من الله، بل لأن الصلاح هيأ قلبه لاستقبالها والسير في طريقها. ورحمة الله هي التي وفّقه للصلاح، ثم أثابته عليه؛ فضلٌ يسبق العمل وفضلٌ يتبعه.

وقد ضاقت به القرية، لكن رحمة الله لم تضق. وهذه سكينة لكل من عاش غريبًا في بيئة لا تشبه قيمه: قد لا تجد في المجتمع سعةً لضميرك، لكن في رحمة الله متسع. قد يحاصرك السوء من الخارج، لكنه لا يملك قلبك ما دمت موصولًا بالله.

في هذا المقطع تظهر النجاة في صورتين:

نجاة إبراهيم من نارٍ أوقدت لجسده.

ونجاة لوط من قريةٍ أرادت إحراق الفطرة.

وقد يكون خطر البيئة الفاسدة أشد من خطر النار؛ فالنار تحرق الجسد مرة، أما المجتمع المنحرف فيحاول أن يطفئ البصيرة كل يوم، حتى يألف الإنسان ما كان ينكره، ثم يدافع عما كان يستحي منه.

ولهذا احتاجت النجاة إلى رشد وحكم وعلم. فالقلب لا ينجو بالمشاعر وحدها؛ لا بد من ميزان يرى به الحقيقة وسط ضجيج العادات، ومن شجاعة تحمله على مفارقة السائد.

وبين قصتي إبراهيم ولوط يظهر قانون الرحمة: من ترك شيئاً لله لم يتركه الله فارغ اليدين. ترك إبراهيم قومًا وأرضًا، فوهبه الله أرضًا مباركةً وذريةً صالحةً وإمامةً ممتدة. وخرج لوط من قرية السوء، فأدخله الله في رحمته.

قد يكون أول العوض خروجًا مؤلمًا، لكنه ينتهي إلى دخول مبارك. فلا تقس ما تخسره في سبيل الله بما سقط من يدك لحظتها، بل بما سيضعه الله في قلبك وطريقك ومصيرك. فرب نارٍ كانت بابًا إلى أرض مباركة، ورب غربةٍ صنعت إمامًا، ورب فراقٍ ضاق به القلب فتح الله بعده نسبًا من النور يمتد إلى العالمين.

الفصل الثاني عشر

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ

عدلُ النبوة حين يجتمع الحكم والحكمة والقوة

بعد أن عرضت السورة نوحًا عليه السلام في ميدان الدعوة والصبر والنجاة، انتقلت إلى داود وسليمان عليهما السلام في ميدان الحكم والعمران. فالنبوة لا تصنع قلبًا يعتزل الحياة، بل تصنع الإنسان الذي يحمل الوحي إلى القضاء والسياسة والصناعة وتسخير القوة؛ حتى لا تبقى العبادة محصورةً في المحراب، بينما تُترك شؤون الناس للهوى.

(وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ).

المشهد في ظاهره صغير: حَرث أفسدته أغنام دخلت فيه ليلاً بلا راعٍ يحفظها، وأصحاب زرع فقدوا ثمرة تعبهم، وأصحاب ماشية عليهم تبعة التفريط. لكنه عند الله ليس شأنًا صغيرًا؛ لأنه يمس حقًا من حقوق العباد.

قد يرى الناس قضاياهم محدودةً إذا قورنت بأحداث الدول الكبرى، لكن المظلمة لا تُقاس بحجمها في عيون المتفرجين، بل بأثرها في صاحب الحق. حق الفقير القليل قد يكون عنده أثن من ثروة كاملة عند غني؛ لأنه ثمرة عمره، وقوت أطفاله، وأمله في الغد.

إن من عدل الوحي أن ينزل إلى تفاصيل حياة الناس. لا يتحدث عن المبادئ الكبرى ثم يترك الضعيف وحيداً أمام خسارته الصغيرة؛ بل يجعل قصة زرع وأغنام آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة، ليقول لكل صاحب حق: قضيتك مرئية في ميزان الله، وإن بدت للآخرين هامشية.

حين يدخل الحيوان في تعب الإنسان

قال تعالى: (إِذْ نَفَسْتُمْ فِيهِ غَتَمُ الْقَوْمِ).

النَّفْس هو انتشار الغنم ليلاً في الحرث من غير راعٍ يحفظها، فأفسدت ما فيه. والغنم لا تحمل مسؤولية أخلاقية؛ فهي تتبع حاجتها، لكن المسؤولية تقع على الإنسان الذي ملكها ثم فرط في حفظها.

وهذه قاعدة واسعة: ليس كل ضرر مقصوداً، لكن عدم القصد لا يلغي حق المتضرر ولا يعفي صاحبه من معالجة أثره. قد يؤدي الإنسان بكلمة لم يرد بها ما فهمه الآخر، أو يتسبب بإهماله في خسارة لم يتعمدها؛ وليس عدلاً أن يقول: لم أقصد، ثم ينصرف تاركاً الجرح قائماً.

النية مهمة في الإثم، لكن الأثر مهم في الحقوق. وقد يبرأ الإنسان من قصد العدوان، ولا يبرأ من واجب الإصلاح والتعويض.

في القصة طرفان لكل منهما شيء يخاف فقده: صاحب الحرث يتعلق بثمره، وصاحب الغنم يتعلق بماله. والحكم العادل لا ينظر بعين أحدهما وحده، ولا يحوّل إنصاف المتضرر إلى ظلم جديد للطرف الآخر. إنه يبحث عن الموضع الذي يعود فيه الحق بلا عدوان.

وكم يختل القضاء حين تحكمه العاطفة المنفردة! يتألم القاضي لخسارة طرف فيعاقب الآخر فوق ما يستحق، أو يتأثر بمكانة القوي فيهون خسارة الضعيف. أما العدل فلا يُبنى على انفعالٍ أعمى، بل على رحمةٍ يبصرها العلم ويضبطها الحق.

وكنّا لحكمهم شاهدين

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ).

ما أثقل هذه الكلمة على كل من يتولى قضاءً أو قراراً بين الناس! قد يغيب الجمهور، وقد تُغلق قاعة الحكم، وقد لا يعلم بتفاصيل القضية إلا أطرافها؛ لكن الله شاهد على الحكم، وعلى الدليل الذي ظهر، وعلى الحقيقة التي أُخفيت، وعلى ميل القلب الذي حاول صاحبه أن يكسوه ثوب القانون.

الحكم ليس أوراقاً تُوقَّع فحسب؛ إنه موقف يقف به الإنسان تحت نظر الله. وكل من أصدر قراراً يؤثر في حق إنسان دخل، من حيث يعلم أو لا يعلم، في معنى هذه الشهادة الإلهية.

والحكم أوسع من القضاء الرسمي. الأب يحكم بين أبنائه، والمدير بين موظفيه، والعالم بين الأقوال، والكاتب حين يعرض الخصومات، والإنسان حين يسمع روايتين فينزّل إحداها منزلة الحقيقة. وكلما كان قوله قادراً على رفع شخص أو إسقاطه، عظمت حاجته إلى التثبت.

كم من إنسان حكم على آخر من جملة مبتورة، أو نقل من خصم، أو انطباع قديم! ثم نشر حكمه كأنه شهد السر والعلن. لكنه سينسى ما قال، وتبقى الكلمة في صحيفة من ظلمته وفي ميزان من قالها.

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)؛ لا شهودًا على النتيجة وحدها، بل على الطريق إليها: هل بحثوا؟ هل سمعوا من الطرفين؟ هل قاوموا ميل النفس؟ هل خافوا الله أكثر من غضب الجماعة؟

ففهمناها سليمان

ثم يقول تعالى:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا).

ألهم الله سليمان وجهًا أدق في الحكم، يجمع جبر الضرر وحفظ أصل المالين. وقد ذكر المفسرون أن داود حكم بالغنم لأصحاب الحرث، بينما رأى سليمان أن تُدفع الغنم إليهم مؤقتًا لينتفعوا بألبانها ونسلها، ويتولى أصحاب الغنم إصلاح الحرث، فإذا عاد كما كان، عاد لكل فريق ماله. وهكذا صار الحكم ترميمًا للخسارة، لا نقلًا نهائيًا لها من طرف إلى آخر.

إنه فقه لا يكتفي بالسؤال: من المخطئ؟ بل يسأل أيضًا: كيف نصلح ما أفسده الخطأ؟ ولا يكتفي بعقوبة المفرط، بل يبحث عن إعادة التوازن إلى حياة المتضرر.

كم من أحكام تحقق معنى الجزاء، لكنها لا تحقق معنى الإصلاح! وكم من خصومة تنتهي بمنتصر مهشم ومهزوم حاقد، لأن الجميع اشتغل بتحديد الغالب، ولم يبحث عن علاج أصل الخل!

وحين يكون المقصود من القضاء مجرد إيلام المخطئ، قد يتحول العدل إلى شهوة انتقام ترتدي لغة القانون. أما الحكم السليماني فيبحث عن صورة يدفع فيها المسؤول تبعة تفريطه، ويُجبر ضرر صاحب الحق، دون أن يتجاوز أحدٌ قدر ما يستحق.

قال تعالى: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ).

الفهم هبة فوق مجرد سماع القضية. قد يسمع اثنان النص نفسه والوقائع نفسها، لكن أحدهما ينفذ إلى العلاقة الخفية بين عناصرها، ويرى مخرجاً لا يراه الآخر.

وليس كل حفظ فهمًا، ولا كل علم حكمة. قد يملأ الإنسان ذاكرته بالقواعد، ثم يعجز عن تنزيلها على واقع متشابك. والفهم أن يرى روح القاعدة كما يرى لفظها، وأن يعرف موضع تطبيقها وحدوده وأثارها.

نسب الله الفهم إلى عطائه، ليظل العالم متواضعًا. إذا انفتح له وجه من الصواب فلا يزهو به على غيره، بل يقول في قلبه: فهمني الله. وربما فُتح للأصغر سنًا ما لم يُفتح للكبير، وللابن ما لم يظهر للأب، وللتلميذ ما غاب عن الشيخ في مسألة؛ وليس في ذلك إهدار لفضل السابق ولا إسقاط لمكانته.

سليمان هو الابن، وداود هو الأب والنبي والملك صاحب التجربة، ومع ذلك خص الله سليمان بالفهم الأدق في هذه القضية. إن الحق لا يعرف عمرًا يحول دون بلوغه، ولا نسبًا يمنع صاحبه من مراجعته. وتواضع الكبير للحق إذا ظهر على لسان الأصغر دليل على كبره الحقيقي.

ومن أشد أمراض العلم أن يرى العالم رجوعه عن قوله هزيمة لهيبته. فيستمر في الخطأ لأن اعترافه بالصواب عند غيره يؤلمه. لكن الأنبياء يعلموننا أن الهيبة التي تحتاج إلى حماية الخطأ ليست هيبة علم، بل خوف ذات.

ثم دفع القرآن توهم الانتقاص من داود فقال:

(وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا).

فهم سليمان هذه القضية على الوجه الأوفق، لكن كليهما أوتي حكمًا وعلمًا. إن تفضيل رأي في مسألة لا يقتضي إهدار فضل صاحبه الآخر، ولا تحويل الخلاف الجزئي إلى محاكمة شاملة للإنسان.

وهذا من عدل القرآن في تقويم الأشخاص: يثبت الإصابة لمن أصاب، ويحفظ للمجتهد فضله ومكانته. أما الخصومات البشرية فكثيرًا ما تتحول فيها زلة واحدة إلى ممحاة تاريخًا، أو تتحول حسنة واحدة إلى ستار يحجب كل خطأ.

الإنصاف أن نرى الإنسان كامل الصورة: نقر بفضله ولا نعصمه، ونرد خطاه ولا نلغيه. لا عصمة للتاريخ، ولا إهدار للفضل.

وقوله: **(حُكْمًا وَعِلْمًا)** يجمع القدرة على الفصل بالحق ومعرفة الحق. فالعلم دون أهلية الحكم قد يبقى معرفة ساكنة، والحكم دون علم يتحول إلى طغيان يرتجل مصائر الناس.

وأخطر من الجهل في مواقع السلطة أن يجتمع الجهل مع الثقة المطلقة. فالقاضي الجاهل لا يظلم وحده؛ قد يجعل المؤسسة كلها أداة لجهله، ويمنح الهوى قوة النفاذ.

الجال التي تسبح مع داود

ثم تخرج بنا الآية من مجلس القضاء إلى مشهد كوني عجيب:

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ).

داود الذي يحمل مسؤولية الحكم يحمل أيضًا قلبًا يفيض بتسبيح الله. لم تسرق منه السلطة خشوعه، ولم تحوّل كثرة القضايا روحه إلى آلة إدارية جافة. كان في المحراب عبدًا، وفي الحكم نبيًا، وفي ميدان القوة قائدًا.

كم من إنسان يدخل إلى السلطة بقلب حي، ثم تبتلع المسؤوليات صلته بالله! يتحول العمل العام عنده إلى عذر دائم لترك العبادة، كأن إصلاح شؤون الناس يمكن أن يستمر بعد انقطاع القلب عن رب الناس.

لكن داود يعلمنا أن العبادة ليست زمناً مسروقاً من المهمة؛ إنها التي تحفظ المهمة من الفساد. فالقاضي الذي لا يقف عبداً بين يدي الله قد يحب أن يقف الناس عبيداً بين يديه. والحاكم الذي لا يتذكر ضعفه في السجود قد تنسيه القوة حدوده.

كان داود يسبح، فتجيبه الجبال والطير. الكون الصامت في ظن الإنسان يدخل معه في نشيد العبودية. الجبل الذي يبدو كتلة جامدة له نصيبه من التسبيح، والطير الذي يحلق في الهواء يشارك في الذكر.

إن القلب إذا صفا لله لم يعد يشعر أنه يعبد وحده في كون غافل؛ يرى الوجود كله مصلياً على طريقته، وتسبيحه جزءاً من تسبيح لا ينقطع. وإنما الإنسان هو الذي قد يغيب عن هذا الموكب، مع أنه أوتي اللسان الذي يعبر والعقل الذي يدرك.

وللجبل في هذا المشهد معنى عجيب: رمز الصلابة والثقل، ومع ذلك يلين للتسبيح. وقد يكون قلب الإنسان أشد قسوة من الجبل حين يسمع الذكر ولا يتحرك.

الجبل لم تمنعه ضخامته من أن يكون عبداً، أما الإنسان فقد تمنحه مكانة صغيرة وهمًا بأنه أكبر من السجود. والطير لم تشغله حركته في الفضاء عن التسبيح، بينما يحتاج الإنسان بأعماله القليلة ليبرر غفلته.

كان تسبيح داود عميقاً حتى جعل الله العالم من حوله يجاوبه. وكأن صدق الذكر لا يبقى صوتاً داخل صاحبه، بل يوقظ في الأشياء صلتها بخالفها. هناك أشخاص إذا ذكروا بالله شعرت القلوب من حولهم أنها تعرف هذا النداء من قديم؛ لأنهم لا يتكلمون عن الله بلسان محفوظ فحسب، بل بقلب ذاق العبودية.

والصوت الجميل إذا حمل قلباً خاشعاً لم يعد جمالاً فنياً مجرداً؛ يصبح جسراً للروح. لكن الجمال إذا انفصل عن الإخلاص قد يسحر الأذن ولا يوقظ القلب. لم يكن سر داود في صوته وحده، بل في المعنى الذي امتلأ به صوته حتى جاوبته الجبال.

(وَكُنَّا فَاعِلِينَ).

كلمة تقطع الطريق على استغراب العقول المحدودة. الله هو الذي فعل؛ ومن خلق الجبال قادر أن يجعلها تسبح على وجه يسمعه داود، ومن خلق الطير قادر أن يجمعها على ندائه.

المعجزة لا تُقاس بقدرة المخلوق، بل بقدرة الخالق. نحن نستبعد الشيء لأننا نسأل: كيف يمكن لنا أن نفعله؟ بينما السؤال الصحيح في مقام قدرة الله: هل يعجز عنه من أوجد الشيء من العدم؟

(وَكُنَّا فَاعِلِينَ)؛ كانت إرادته نافذة، وقدرته كاملة، لا تحتاج إلى معونة ولا تجريب. وما نراه مستحيلاً إنما هو مستحيل في حدود أسبابنا، لا في سلطان الله.

صناعة اللباس الذي يحرس الحياة

ثم يقول تعالى:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ).

علّم الله داود صناعة الدروع؛ يلين له الحديد، وينسجه حلقاتٍ تحفظ المقاتلين من الضربات. وهنا تجتمع النبوة والصناعة في يد واحدة، ليتحرر الوعي من الفصل الزائف بين الإيمان والإتقان المادي.

الله الذي علّم الأنبياء الوحي علّم داود الصناعة. فالمعمل يمكن أن يكون موضع عبادة، كما يكون المحراب؛ إذا قصد الإنسان بعمله نفع الخلق، وأتقنه، وحفظ به الحياة.

إن المعرفة الصناعية من تعليم الله في أصلها؛ هو الذي خلق الحديد وخصائصه، ومنح العقل القدرة على اكتشافها، واليد القدرة على تشكيلها. وما يسميه الإنسان اختراعاً هو في جانب منه كشفٌ لبعض الإمكانيات التي أودعها الله في الكون.

لا يخلق المخترع قوانين المادة من العدم، بل يقرأ شيئاً من الكتاب الكوني الذي فتحه الله للعقل. وكل اكتشاف ينبغي أن يزيد صاحبه تواضعاً وشكراً، لا أن يوهمه أنه استغنى عن خالق العقل والمادة معاً.

قال تعالى: (صَنَعَةُ الْبُؤْسِ لَكُمْ).

كان التعليم لداود، لكن النفع لكم؛ فنتجاوز ثمرة العلم صاحبه. العلم المبارك لا ينغلق في عقل العالم، بل يتحول إلى حماية أو دواء أو عمران أو هداية ينتفع بها الناس.

وما أعظم الفرق بين معرفةٍ يتخذها صاحبها سُلماً للاستعلاء، ومعرفةٍ يصنع منها لباساً يحمي الآخرين! قيمة العلم ليست في ندرة مصطلحاته، بل في مقدار الحق والخير الذي يضيفه إلى الحياة.

وسمى الدرع لبوساً؛ فهي تلتصق بالمقاتل وتحفظ جسده. ولم تكن الصناعة للزينة، بل لوظيفة أخلاقية واضحة:

(لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ).

من بأسكم أنتم؛ من حرب البشر بعضهم على بعض. وهذه العبارة مؤلمة: الإنسان هو الذي يحتاج إلى درع يحميه من أخيه الإنسان. الوحوش لها أنياب، لكنها لا تصنع جيوشاً من الكراهية ولا فلسفات تبرر الإبادة. أما الإنسان فقد يستخدم العقل الذي أُعطي للعمران في ابتكار وسائل أشد للقتل.

ومع ذلك، يعلم الله الإنسان ما يحميه من بأسه، فيجعل العلم رحمةً تواجه ما صنعه العدوان. إن وسائل الدفاع مشروعة لحماية الحياة ورد البغي، لكن الخلل يبدأ حين يتحول الدرع إلى سيف عدوان، وحين تصبح التقنية وسيلة لإخضاع الضعفاء بدل صونهم.

كل اختراع يحمل سؤالاً أخلاقياً: في يد من سيكون؟ ولأي غاية يُستخدم؟ فالمعرفة وحدها لا تضمن الخير. قد تصنع الدواء والسّم بأدوات متقاربة؛ والذي يحدد الوجهة هو الضمير.

لذلك لا يكفي للمجتمع أن يتقدم تقنياً؛ عليه أن يرتقي أخلاقياً بما يوازي قدرته. فإذا كبرت الأدوات وبقي الضمير صغيراً، صار التقدم نفسه خطراً على الإنسان.

ثم يأتي السؤال:

(فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ).

لم يقل: فهل أنتم معجبون بالصنعة؟ بل: هل تشكرون؟

الشكر هو الوجه الأخلاقي للمعرفة. أن ترى النعمة، وتعرف مصدرها، وتستعملها في الغاية التي ترضي واهبها. ليس الشكر كلمة تُقال بعد الانتفاع فحسب؛ بل ألا تحول ما علّمك الله إياه إلى أداة لمعصيته وإيذاء عباده.

من شكر نعمة العلم أن ينسب الفضل إلى الله، ويعلم من يحتاج، ويتواضع للحق، ويحرس معرفته من البيع للظلم. ومن كفرها أن يجعلها وسيلة للغرور أو الخداع أو صناعة الألم.

والسؤال: (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) مفتوح لكل جيل. هل شكرنا ما وصل إلينا من وسائل الحماية؟ هل استعملنا القوة لصيانة الضعيف أم لترويعه؟ هل جعلنا التقنية خادمة للإنسان أم جعلنا الإنسان وقوداً لها؟

قد يرفع الاختراع قدرة المجتمع، لكنه لا يرفعه عند الله حتى يستعمله بالعدل.

الريح التي تحمل ملك سليمان

ثم تنتقل السورة إلى سليمان عليه السلام:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ).

سخر الله له الريح عاصفة قوية، لكنها تجري بأمره إلى الوجهة المقدرة. قوة هائلة في الطبيعة تتحول إلى وسيلة حركة وعمران تحت سلطان علمه الله الحكمة.

الريح في ذاتها لا تُمسك باليد، ولا تُرى إلا في أثارها، لكنها تحمل وتدفع وتغيّر. وسخرها الله لسليمان، ليعلم الإنسان أن القوى التي يعجز عن احتوائها خاضعة لخالقها.

والمعجزة لا تعني فوضى، بل تظهر هنا في صورة قوة منضبطة: (تَجْرِي بِأَمْرِهِ). ليست عاصفة تدمر بلا وجهة، بل طاقة مأمورة تصل إلى الأرض المباركة.

وهنا درس في القيادة: ليست القوة أن تمتلك طاقة عاصفة فحسب، بل أن تمنحها اتجاهًا رشيدًا. كم من أمة ملكت قوة الشباب والمال والسلاح، لكنها بددتها لأنها لم تملك الأمر الحكيم الذي يجمعها على غاية!

الطاقة بلا وجهة قد تهدم صاحبها، كما تفعل العاصفة إذا تُركت بلا ضبط. أما حين يحكمها العلم والأخلاق، فإنها تختصر المسافات وتبني العمران.

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا).

عاد ذكر الأرض المباركة التي نُجِّي إليها إبراهيم ولوط. إنها ليست مجرد نقطة وصول، بل مركز رسالة. وكأن القوة في المشروع النبوي تتحرك نحو البركة، لا نحو النهب والسيطرة.

الملك السليمان لم يكن توسعاً فارغاً يشتهي جمع الأرض تحت اسم الحاكم، بل تسخيراً للنعم في طريق أمر الله. فليست قيمة السلطان في اتساع ما يحكم، بل في الخير الذي يوصله إلى ما يحكم.

قد تتسع الدولة ويضيق العدل، وقد تصغر مساحتها وتتسع كرامة الإنسان فيها. والبركة لا تقاس بعدد الأقاليم، بل بمقدار ما يقام فيها من حق ورحمة.

ثم يقول:

(وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ).

الله يعلم الريح ومساراتها، ويعلم سليمان وما يحتاج إليه، ويعلم الأرض التي تتجه إليها، ويعلم الغاية من هذا التسخير. لا توجد قوة في الكون تخرج عن علمه، ولا حركة تضيع من حسابه.

وهذا التعقيب يحرر المؤمن من الخوف من القوى التي لا يحيط بها. قد لا يعرف الإنسان كيف تتحرك الأحداث، لكنه يعلم أن الله يعلمها. وما دام التدبير في علم الله، فلا توجد مصادفة عمياء تستطيع أن تخطف الكون من حكمته.

لكن علم الله بكل شيء يضع صاحب القوة تحت رقابة لا تغفل. قد تسير أوامر الحاكم إلى أطراف مملكته ولا يعرف الناس دوافعه، لكن الله يعلم لماذا أمر، ومن نفع، ومن ظلم. فلا حصانة لسلطان خلف اتساع مملكته؛ كل شيء معلوم عند رب الملك.

الشياطين حين تصبح القوة خادمة لا سيّدة

ثم يقول تعالى:

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ).

سخر الله لسليمان من الشياطين من يغوصون في البحار، ويستخرجون ما فيها، ويؤدون أعمالاً أخرى من البناء والصناعة. كانت قوى التمرد والفوضى منقاداً بأمر الله في مشروع نبي.

وفي ذلك معنى بديع: حين يكون السلطان للحق، تتحول القوة التي قد تُستخدم في الإفساد إلى طاقة عمل. لا يتركها تعبت بالمجتمع، بل يضعها في إطار المهمة النافعة، ويمنع شرها.

ليس حسن القيادة أن تعمل مع الأخيار وحدهم؛ بل أن تعرف كيف تضبط الطاقات المختلفة، وتستخرج من كل قدرة نفعها، وتمنع أذاها. قد يكون في المجتمع من لا يحمله صفاء الدافع، لكن النظام العادل يمنعه من الإفساد ويوجه قدرته إلى الصالح العام.

غير أن تسخير الشياطين لسليمان كان معجزةً خاصةً آتاه الله إياها، فلا يحمل النص على تصورات خرافية أو دعوى بشرية تزعم امتلاك سرّ سليمان. إنما نؤمن بما أخبر به الوحي، ونقف عند حدوده، فلا نحول الآية إلى باب للدجل واستغلال حاجات الناس.

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ).

كان الله يحفظهم من الانفلات عما سَخَّرُوا له، ويحفظ سليمان من أذاهم. فالقوة التي تحت سلطان سليمان ظاهريًا كانت في الحقيقة مضبوطةً بحفظ الله.

لا يكفي أن تمتلك أدوات القوة؛ تحتاج إلى حفظ الله من شرها عليك. كم من سلطان صنع جهازًا ليحمي حكمه، ثم ابتلعه الجهاز! وكم من إنسان جمع المال لخدمه، ثم صار خادمًا له! وكم من تقنية صُنعت لتوفر الوقت، ثم استولت على الوقت والانتباه!

كل ما تسخّره قد يستعبدك إن لم يحفظك الله من فتنته. ولذلك كان قلب سليمان متعلقًا بالمنعم، لا بالريح ولا بالجن ولا بالملك. كان يعرف أن السلطان ليس صفةً ذاتيةً فيه، بل هبة يمكن أن تزول، وأن الحفظ من الله، لا من كثرة الأدوات.

النبوة التي تجمع المحراب والدولة والمصنع

في هذه الآيات يظهر داود وسليمان عليهما السلام في لوحة متكاملة:
يحكمان في حرث أفسدته الأغنام؛ فهما قريبان من حقوق الناس اليومية.

ويؤتيهما الله الحكم والعلم؛ فلا تنفصل السلطة عن المعرفة.

وتسبح الجبال والطير مع داود؛ فلا تنفصل المسؤولية عن العبادة.

ويصنع الدروع؛ فلا ينفصل الوحي عن الصناعة.

وتجري الرياح لسليمان؛ فلا تبقى قوى الطبيعة خارج مشروع العمران.

وتغوص الشياطين وتعمل؛ فلا تُترك الطاقات المتمردة لتعبت بلا نظام.

هذه هي الحضارة في ميزان النبوة: عدلٌ يحرس الحقوق، وعبادة تحرس القلب، وعلم يحرس القرار، وصناعة تحرس الجسد، وقوة يحرسها أمر الله.

إذا انفصلت هذه العناصر اختل البناء. فالقوة بلا عبادة تستبد، والعبادة بلا عدل تتحول إلى مظهر لا يحمي مظلوماً، والعلم بلا أخلاق يصنع أدوات الفناء، والحكم بلا فقه يضاعف الخسائر، والصناعة بلا شكر تجعل الإنسان أكثر قدرة وأقل رحمة.

ولذلك لم تختتم آية الدروع بالإعجاب بالمهارة، بل بالشكر: (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ).

فالسؤال الذي يواجه الحضارات ليس: ماذا استطعتم أن تصنعوا؟ بل: ماذا صنعتم بما استطعتم؟ هل زادت القدرة الإنسان أمناً وكرامةً، أم زادت الطغاة قدرةً على سحقه؟ هل أصبحت المعرفة درعاً للضعيف، أم سيفاً في يد القوي؟

إن داود وسليمان يقدمان صورةً للسلطة التي لا ترى نفسها مالكةً مطلقة، بل أمانةً تحت عين الله. يحكمان وهما يعلمان أن الله لحكماهما شاهد، ويملكان وهما يعلمان أن كل شيء يجري بعلمه، ويتعاملان مع القوى المسخرة بوصفها نعمًا تستوجب الشكر.

وهذا هو الفارق بين الملك النبوي والطغيان: الطاغية يرى القوة دليلاً على استحقاقه، والنبى يراها امتحاناً لمسؤوليته. الطاغية يريد أن تُسَبَّح الجماهير باسمه، وداود تسبح معه الجبال لله. والطاغية يسخر الناس لبناء مجده، وسليمان يسخر ما وهبه الله لخدمة الرسالة والعمران.

فليست العظمة أن تنقاد لك الريح، بل ألا تفقدك شهوة السلطان. وليست الحكمة أن تحكم بين الناس فحسب، بل أن تظل وأنت تحكمهم عبدًا يعلم أن الله لحكمه شاهد. وليست الحضارة أن يصير الحديد في يدك درعاً، بل أن يبقى قلبك — مع امتلاك الحديد — ليئلاً للحق، شاكراً للنعمة، أميئاً على حياة الإنسان.

الفصل الثالث عشر

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ

حين يتكلم الألم بأدب العبودية وتنهزم الظلمات بالدعاء

بعد أن عرضت السورة ما سُخِّرَ لداود وسليمان عليهما السلام من الحكم والعلم والجمال والريح والقوى العاملة، انتقلت من اتساع الملك إلى ضيق المرض، ومن نبي تجري الريح بأمره إلى نبي أرهقه الضر فلم يكن له إلا أن يرفع قلبه إلى الله.

إنها تقيم سليمان في مشهد القوة، وأيوب في مشهد الضعف، ثم تكشف أن كليهما عبدٌ لله: ذاك يُبْتَلَىٰ بما أُعْطِيَ، وهذا يُبْتَلَىٰ بما أُخْذَ منه. فلا الملك وحده علامة كرامة، ولا المرض علامة هوان؛ إنما الكرامة في الحاليين أن يبقى القلب لله.

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

ما أرق هذا الدعاء، وما أشد امتلاءه بالمعنى!

لم يسرد أيوب تفاصيل ألمه، ولم يحوّل الدعاء إلى لائحة شكوى طويلة، مع أن البلاء كان عظيمًا. قال فقط:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ).

كأنه يصف بحرًا بكلمة، ويضع سنوات الوجد في جملة قصيرة. فالله لا يحتاج إلى شرح طويل كي يعلم؛ يعلم موضع الألم قبل أن نشير إليه، ويسمع أنين القلب قبل أن يصوغه اللسان.

ولكن العبد يحتاج إلى أن يتكلم؛ لا ليُعلم الله بما خفي عنه، تعالى الله عن ذلك، بل ليضع ضعفه في مقام العبودية، ويخرج ألمه من عزلته إلى سعة المناجاة.

مَسْنِي الضَّر

قال أيوب: (مَسْنِي)، ولم يقل: حَطَمَنِي أو أَهْلَكَنِي، مع أن الضر أحاط بحياته. هذا من أدب النبوة في مخاطبة الله؛ لا إنكار للألم ولا مبالغة توهم أن البلاء غلب رحمة الله.

والمسّ في اللفظ لطيف، لكنه لا يعني أن مرضه كان يسيرًا؛ إنما يكشف كيف يرى المؤمن البلاء إلى جوار عافية الله الباقية. فما أصابه، على شدته، مسّ جانبًا من وجوده، لكنه لم يمس حقيقة إيمانه، ولم يقطع صلته بربه، ولم يستول على مصيره الأبدي.

قد يفقد الإنسان الصحة، ولا يفقد المعنى. ويُحرم بعض الراحة، ولا يُحرم القرب. وتترجع أسباب الدنيا من حوله، ويبقى له سبب لا ينقطع: أن يقول يا رب.

ومن رحمة التعبير أن أيوب لم يتظاهر بالقوة. قال: مسني الضر. الاعتراف بالألم ليس اعتراضًا على الله، كما أن الصبر ليس تبذُّلًا لا يشعر صاحبه بشيء. الصابر يتألم، لكنه لا يجعل ألمه اتهامًا لربه؛ ويبكي، لكنه لا يقطع حبل الرجاء؛ ويشكو إلى الله، لا من الله.

والفرق بعيد بين من يشكو الله إلى الخلق، كأنه يتهم حكمته، وبين من يشكو حاله إلى الله، مستغيثًا برحمته. الأول يجعل البلاء حجابًا عن الله، والثاني يجعل البلاء طريقًا إليه.

وأنت أرحم الراحمين

لم يقل أيوب مباشرة: فاشفني. عرض حاله، ثم أثنى على ربه:

(وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

لقد جعل حاجته بين وصفين: ضعفه هو، ورحمة الله. كأنه يقول: هذا ضرِّي، وتلك رحمتك؛ وأنا أضع الضر الصغير — مهما عظم في إحساسي — أمام الرحمة التي لا يحدها شيء.

هذا هو اليقين حين يشتد البلاء: ألا تتغير معرفتك بالله لأن حالك تغيرت. قد يتغير جسدك، ومالك، والناس من حولك، لكن يبقى الله في قلبك أرحم الراحمين.

كم يسهل على الإنسان أن يتحدث عن الرحمة في أيام العافية! لكن المعرفة الراسخة تظهر حين يتألم، ثم يظل يقول: وأنت أرحم الراحمين. لا لأنه فهم كل تفصيل، بل لأنه عرف ربه معرفةً أعمق من حيرته.

إن أيوب لا ينسب الضر إلى قسوة، ولا يرى تأخر الفرج غياباً للرحمة. يعلم أن الرحمة قد تكون حاضرةً في صورة لا يراها الجسد؛ في الأجر الذي يتضاعف، والروح التي تتطهر، والدرجات التي لا تبلغها الأعمال وحدها، واليقين الذي لا ينضج في حياة لم تمسها الشدة.

وليس معنى ذلك أن الألم مطلوب لذاته، أو أن المؤمن لا يسأل العافية. بل إن أيوب دعا، فطلب الفرج بطريقته المهدبة. الإسلام لا يمجّد الوجع لأنه وجع، وإنما يكشف إمكان تحوله — حين يقع — إلى طريق تطهير وقرب.

فنحن نسأل الله السلامة، فإذا ابتلانا صبرنا، وإذا فتح باب العلاج أخذنا به، وإذا طال البلاء لم نحكم على رحمة الله من خلال ساعة الألم.

استجابةً تزيل الضر وتردّ ما فُقد

ثم يأتي الجواب:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).

مرةً أخرى تجاور السورة بين النداء والاستجابة:

(نَادَى رَبَّهُ) ... (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ).

ليس في طريق الدعاء بابٌ ضائع. قد يطول الوقوف، لكن المنادي ليس متروكًا. وحين جاء الفرج لم يقل الله: خففنا الضر، بل:

(فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ).

الكشف إزالة الغطاء؛ كأن الضر كان غشاءً أحاط بحياته، فرفعه الله. والذي يرفع البلاء هو الذي أذن به ابتلاءً، وما من شدة إلا وتحت سلطان الله لحظة دخولها وخروجها.

قد يدخل المرض بتقرير طبي، لكنه لا يخرج إلا بإذن الله، وإن جاء الشفاء على يد طبيب ودواء. نحن نأخذ بالأسباب؛ لأنها من هديه، لكننا لا ننسب إليها استقلالاً لا تملكه. الدواء سبب، والطبيب سبب، والمناعة سبب، ورب الأسباب هو الشافي.

ولذلك لا تناقض بين الدعاء والعلاج. أيوب دعا ربه، وأمر في موضع آخر أن يركض برجله، فظهر له ماء يغتسل منه ويشرب. تتعانق الاستعانة بالله مع الحركة البشرية؛ القلب يعتمد على الله، والجوارح تعمل بما فتحه من أسباب.

العوض الذي لا يعيد الماضي فقط

(وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ).

لم يكن الجواب شفاء الجسد فقط، بل إعادة عمران الحياة حوله. فالبلاء لا يصيب عضواً منفرداً دائماً؛ قد يهز العلاقات والبيت والشعور بالأمان. وجاء العوض واسعاً يلامس الجوانب التي أصابها الفقد.

أعطاه الله أهله، وزاده مثلهم معهم. إن عطاء الله لا يقتصر على رتق الموضع الذي تمزق، بل قد يجعل حوله فضلاً زائداً؛ كأن آثار الجرح نفسها تتحول إلى منافذ للنور.

لكن العوض لا يأتي في حياة كل مبتلى بالصورة نفسها. قد يُرد المفقود، وقد يُعطى بدلاً منه ما هو أصلح، وقد يُدخر العوض كاملاً للآخرة. وقصة أيوب لا تعني وعداً لكل مريض أن يسترد في الدنيا كل ما فقد؛ بل تعني أن الله قادر على الكشف، وأن الصبر لا يضيع، وأن رحمته تعرف كيف تعوض عبده في الوقت والدار اللذين تقتضيهما حكمته.

كم من إنسان ظن أن العوض لا يكون إلا نسخةً من الشيء الراحل، فظل يردّ عطايا جديدة لأنها لا تشبه أمنيته القديمة! لكن الله قد يعوضك سكينَةً عن شيء، وفهمًا عن تجربة، وصحبةً عن فراق، وقربًا منه عن دنيا انكسرت في يدك.

العوض الإلهي لا يعيدك دائماً إلى الصورة التي كنت عليها؛ قد يبني منك إنساناً أعمق، يرى الحياة بعين لم تكن له قبل البلاء.

رحمة من عندنا

قال تعالى:

(رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا).

لم ينسب أيوب الفرج إلى استحقاق شخصي، مع عظيم صبره. فالشفاء رحمة، والعوض رحمة، والصبر نفسه رحمة. الله هو الذي يوفق العبد إلى الثبات، ثم يثيبه على ما وفقه إليه.

وقوله: (مِنْ عِنْدِنَا) يمنح الرحمة خصوصية القرب والتكريم؛ جاءت من الجهة التي لا تنفذ خزائنها، ولا يعجزها إصلاح ما هدمته السنون.

رحمة البشر قد تعجز أمام المرض: يجلس المحب قرب سريرك، يبكي لألمك، لكنه لا يملك كشفه. أما رحمة الله فليست تعاطفًا عاجزًا؛ إنها رحمة قادرة، تقول للضرر: ارتفع، وللعافية: عودي.

ومع ذلك قد تظهر رحمة الله قبل الشفاء في صورة البشر أنفسهم: يد تمسح الألم، وطبيب يصدق، وصديق لا يملّ، وقلب يدعو في الغيب. وما أجمل أن يكون الإنسان ممرًا لرحمة الله إلى مبتلى، لا أن يضيف إلى مرضه مرض الوحدة!

وذكرى للعابدين

لم يجعل الله قصة أيوب ذكرى للمرضى فقط، بل قال:

(وَذِكْرَى لِّلْعَابِدِينَ).

لأن العبادة ستُختبر. من عبد الله على حال واحدة قد تنزل قدمه حين تتغير الحال. والعابد الحق لا يعبد العافية، بل يعبد الله في العافية والبلاء.

قصة أيوب تقول للعابد: سيأتي على صلاتك يوم تصلي فيه بقلب مثقل، وعلى دعائك زمن لا ترى فيه أثراً عاجلاً، وعلى يقينك لحظة تحاصره الأسئلة؛ فلا تظن أن ثقل العبادة في البلاء يعني أن الله أبعدك. ربما كانت عبادتك المكسورة أحب وأصدق من طاعات كثيرة أديتها في زمن الراحة.

في العافية يعبد الإنسان بقوته، وفي المرض يعبد بعجزه. في الأولى يقوم، وفي الثانية قد لا يستطيع إلا أن يئن باسم الله؛ لكن الأئين الصادق قد يكون عند الله تسبيحاً لا تسمعه آذان الناس.

والذكرى للعابدين أن البلاء لا يبقى، وإن طال، وأن الرب الذي ابتلى هو أرحم الراحمين، وأن كشف الضر لا يعجزه، وأن الصبر ليس إقامةً أبديةً في الوجد؛ بل عبورٌ تحت عين الله إلى فرجٍ في الدنيا أو ثوابٍ لا ينفد في الآخرة.

الفصل الرابع عشر

كُلُّ مِنَ الصَّابِرِينَ

الصبر الذي لا تصنعه الضوضاء وتفتحه الرحمة

بعد أيوب عليه السلام، تجمع السورة ثلاثة أنبياء في عقد واحد:

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) ○ وَأَدْخَلْنَاهُمْ

فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

لم تسرد هنا تفاصيل حياتهم، بل اختارت الصفة التي تلخص سر ثباتهم:

(كُلُّ مِنَ الصَّابِرِينَ).

ثلاثة أسماء، وتجارب متعددة، لكن الطريق يحمل الاسم نفسه: الصبر. كأن السورة تقول إن اختلاف ميادين الابتلاء لا يغيّر الزاد الذي يحتاج إليه السائرون.

إسماعيل عليه السلام في الذاكرة القرآنية ابنٌ تربي على التسليم، وعاش وفاء الوعد، وأسهم في رفع قواعد البيت، ومرّ بمشهد الذبح بقلب استسلم لأمر الله.

وإدريس عليه السلام نبي صديق رفعه الله مكاناً عليّاً، يمثل استقامة الرسالة في زمن مبكر.

وذا الكفل من المصطفين الأخيار الذين أثنى القرآن على صبرهم وصلاحهم، وقد اختلف أهل العلم في نبوته، غير أن سياق ذكره مع الأنبياء وموضع الثناء عليه يدل على علو منزلته، ولا حاجة إلى أن نملاً صمت النص بتفاصيل لا تقوم عليها حجة.

إن من أدب التدبر ألا نحول المساحة التي تركها الوحي مجملَةً إلى ميدان للأساطير. يكفيننا ما أراد الله أن يثبتته: كانوا صابرين صالحين، فأدخلهم في رحمته.

الصبر ليس سكوناً

الصبر في الوعي الشائع قد يُفهم على أنه احتمال سلبي، أو رضا بالظلم، أو تجميد للحركة. أما صبر الأنبياء فهو قوة أخلاقية تحفظ الوجهة وسط العواصف.

الصبر أن تعمل ولا تستعجل الثمرة، وأن تقاوم ولا تتحول إلى صورة ممن تقاومه، وأن تتألم ولا تبيع يقينك مقابل راحة مؤقتة، وأن تنتظر أمر الله دون أن تتوقف عن أداء ما عليك.

إنه ليس أن تقبل الظلم بوصفه حقاً، بل أن تقاومه دون أن يسمح لك ألمه بأن تظلم. وليس أن تسكت حيث يجب الكلام، بل أن تتحمل كلفة الكلمة حين يكون الصمت أيسر.

هناك صبر على الطاعة؛ لأنها تحتاج إلى دوام لا إلى حماسة عابرة.

وصبر عن المعصية؛ لأن الشهوة تعد بلذة قريبة وتحجب الندم البعيد.

وصبر على الأقدار؛ لأن القلب قد لا يفهم الحكمة فوراً، لكنه يعرف حكمة المدبر.

وصبر في حمل الرسالة؛ لأن الناس لا يتغيرون بالسرعة التي يتخيلها المصلح.

والجامع بينها أن تظل في الموضع الذي يرضاه الله، مهما ضغط عليك الألم لتغادره إلى هواك.

كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ

قال: (كُلٌّ)؛ فلم يكن الصبر طبعاً خاصاً بواحد منهم. إن طريق الاصطفاء كله محفوف به. لا توجد رسالة عظيمة بلا مسافة من الانتظار، ولا بناء حقيقي ينضج في لحظة.

الذين يريدون نتائج كبيرة بصبر قليل يطلبون من الحياة مخالفة سننها. البذرة تشق التراب ببطء، والطفل ينمو على مراحل، والعلم يتراكم، والنفس تُزكى بالمجاهدة، والأمم تنهض بأجيال من العمل.

إن ثقافة العجلة تجعل الإنسان يبدأ مشروعات كثيرة ولا يتم واحداً؛ يعشق البدايات لأنها مشبعة بالحماسة، ويترك الطريق حين تتحول الحماسة إلى مسؤولية يومية. أما الصابر فيعرف أن المجد الأخلاقي يتشكل غالباً في الأيام المتشابهة التي لا يصفق فيها أحد.

كل صلاة في موعدها حجر في بناء الروح، وكل مرة ترد فيها نفسك عن الخطأ تقوي فيها حريتها، وكل كلمة حق تكررهما رغم قلة المستجيبين تفتح لها مساراً في الزمن.

الصبر لا يَعِدُكَ أن ترى كل الثمار بعينيك. قد تزرع شجرة يستظل بها جيل لم تولد بعد وجوهه، وقد تكتب فكرة لا تفهم في زمانك ثم تجد قلبها في زمان آخر. يكفي أن يعلم الله أنك زرعت حيث أمرك.

وأدخلناهم في رحمتنا

بعد الصبر جاء الدخول:

(وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا).

كان الصبر طريق طويل، والرحمة دار يدخلها السائر فيجد معنى كل ما احتمل. لم يقل: أعطيناهم رحمة فقط، بل أدخلناهم فيها؛ فأحاطت بهم كما يحيط المنزل الآمن بمن عاد من سفر شاق.

والصابر في حقيقته داخل رحمة الله حتى أثناء البلاء، وإن لم يدرك ذلك كله. رحمة توفقه إلى الثبات، وتحجزه عن كلمة السخط، وتبعث في قلبه رجاءً كلما اقترب اليأس، وترسل إليه من المعاني ما يحمل به يوماً آخر.

فلا يظن أحد أن الرحمة لا تبدأ إلا عند نهاية المحنة. لولا الرحمة ما استطاع أن يصبر خلالها. كما أن السفينة ليست بعد الطوفان فقط؛ وجودها وسط الماء هو الرحمة.

ثم قال:

(إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

الصبر لم يكن خمولاً، بل أنتج صلاحاً. والصالح هو الذي استقامت صلته بالله وصلاح أثره في الخلق. لا يكفي أن يتحمل الإنسان الألم ثم يخرج منه قاسياً يؤذي الآخرين بما أُؤذي؛ الصبر النبوي يحوّل الجرح إلى رحمة، والخبرة إلى حكمة.

وقد يخرج بعض الناس من المحنة وهو يقرر أن يفعل بالضعفاء ما فُعل به، فيكون قد نجا من الحدث ولم ينجُ من سمّه. أما الصالح فيطهر ألمه، فلا يسمح له أن يتكاثر في حياة الآخرين.

الفصل الخامس عشر

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

نداء يونس حين أغلقت الجهات وبقي باب السماء

ثم تنتقل السورة إلى واحد من أكثر مشاهد النبوة امتلاءً بالظلمة والرجاء:

(وَدَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ذو النون هو يونس عليه السلام، صاحب الحوت. خرج من قومه مغاضباً لهم لما طال منهم التكذيب، قبل أن يأذن الله له بالخروج. لم يكن غضبه لنفسه، وإنما ضاق بإعراضهم، لكن النبي يتربى على دقة الوقوف عند أمر الله؛ فالنية الصالحة لا تغني عن التوقيت الصحيح.

قد يكون الأمر الذي يريده الإنسان خيراً في ذاته، لكنه يطلبه في غير أوانه، أو يسلك إليه بغير الطريق المأذون. والعبودية ليست في صحة الغاية فقط، بل في صحة الوسيلة والتوقيت والانتظار.

خرج يونس من ضيق قومه، فدخل في ضيق البحر وبطن الحوت؛ ليعلم أن النجاة ليست في تغيير المكان وحده، بل في موافقة أمر الله. قد يفر الإنسان من المشكلة بعيداً، ثم يحمل في داخله السبب الذي يعيد إنتاجها.

فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

قوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) لا يعني أنه ظن عجز الله عنه؛ فذلك لا يليق بنبي يعرف ربه. وإنما المعنى: ظن أن لن نصيق عليه أو نؤاخذه بهذا الخروج، كما جاء فعل القدرة بمعنى التضيق في قوله تعالى: (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ).

ظن أن الأمر أوسع، وأنه لن يُبتلى بسبب مغادرته، فجاءت التربية الإلهية بقدر منزلته. فحسنت الأبرار تُقاس بدقة لا تُقاس بها أحوال عامة الناس، وكلما ارتفعت منزلة العبد عظمت أمانة الاستجابة.

وليس في القصة انتقاص من يونس، بل بيان لاصطفائه؛ فالله لم يتركه لخطئه، وإنما ربّاه، وردّه، وخلّد دعاءه دواءً للمكروبين إلى قيام الساعة.

الأنبياء لا تصنع عظمتهم أنهم لم يمروا بلحظة اجتهد تحتاج إلى تصحيح، بل أنهم إذا جاءهم التصحيح كانوا أسرع الخلق رجوعاً، وأصدقهم اعترافاً، وأكملهم عبودية.

في الظلمات

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ).

ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. طبقات من العجز أغلقت عليه منافذ الأسباب. لا سفينة يركبها، ولا ساحل يسبح إليه، ولا إنسان يسمع صوته، ولا يد تمتد إليه.

لكن المكان الذي لا يصل إليه أحد من الخلق ليس خارج سمع الله.

ناداه من تحت الماء، وفي جوف الحوت، فبلغ النداء رب العرش بلا حاجز. نحن نحتاج إلى قرب المسافة لنسمع بعضنا، أما الله فلا تختلف عنده نجوى القلب في قاع البحر عن الدعاء عند باب الكعبة.

في كل حياة ظلمات قد تتراكم: مرض ووحدة، وظلم وفقر، وفقد وحيرة. وقد يشعر الإنسان أن مشكلته ليست ظلمةً واحدةً يستطيع الخروج منها، بل طبقات تحببه عن كل منفذ.

تقول قصة يونس: حين تغلق الجهات الأفقية كلها، يبقى الاتجاه إلى الله مفتوحًا. بل ربما كان إغلاق الطرق رحمةً تقطع تعلق القلب بها، حتى يخرج الدعاء خالصًا لا يتوزع بين الله وبين الأسباب.

ليست النجاة دائمًا في أن يظهر لك مخرج سريع، بل قد تبدأ حين تدرك أن الله معك في الموضع الذي لا مخرج منه بعد.

دعاء يعيد بناء القلب

قال يونس:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ).

بدأ بالتوحيد، فأعاد القلب إلى مركزه. في لحظة الخوف قد تتعلق النفس بأي شيء، لكنه أعلن أن لا ملجأ ولا مدبر ولا منجي إلا الله.

التوحيد في الرخاء عقيدة، وفي الظلمات نجاة. حين تتساقط الأسباب تعرف الروح معنى ألا إله إلا الله معرفةً لا تمنحها المجادلات النظرية وحدها. لا أحد يملك أن يخاطب الحوت، أو يشق البحر، أو يرد النفس؛ لا إله إلا أنت.

ثم قال:

(سُبْحَانَكَ).

نزه الله عن الظلم والعبث والخطأ. لم يقل: لماذا وضعتني هنا؟ بل قال: سبحانك؛ أنت منزّه عن أن تقدّر شيئاً بغير حكمة، ومنزه عن أن تعاقب بغير عدل، ومنزه عن أن تضيع عبداً ناداك.

التسبيح في الظلمة يعني أن يبقى تصورك عن الله مضيئاً حين يظلم واقعك. قد لا تفهم القدر، لكنك تنزه المقدّر. وقد يضيق صدرك بالحدث، لكنك لا تسيء الظن برب الحدث.

ثم قال:

(إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

اعترف، ولم يبحث عن مبررات. لم يقل: لكن قومي هم الذين اضطروني، مع أنهم كذبوه وأتعبوه. رأى موضع تقصيره هو؛ لأن الرجوع إلى الله يبدأ حين يتوقف الإنسان عن استعمال أخطاء الآخرين ستاراً يحجب خطاه.

ما أكثر ما نعتذر لأنفسنا بسوء من حولنا! غضبت لأنهم استفزوني، وظلمت لأنهم سبقوني، وخنت لأنهم لم يقدروني. وقد تكون إساءتهم حقيقية، لكنها لا تحول خطأنا إلى صواب.

الاعتراف الصادق لا يعني احتقار النفس أو إنكار الفضائل، بل وضع الفعل في اسمه الصحيح. ويونس نبي كريم، لكن كرامته لم تمنعه من أن يقول: (إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). بل كانت كرامته في صدق رجوعه.

الدعاء اجتمع فيه التوحيد والتنزيه والاعتراف:

لا إله إلا أنت: معرفةً بالله.

سبحانك: حسن ظن وتنزيه.

إني كنت من الظالمين: معرفةً بالنفس.

ومن عرف ربه بالكمال، وعرف نفسه بالتقصير، وقف في أنسب موضع لتلقي الرحمة.

فاستجبنا له ونجيناه من الغم

ثم يأتي الجواب:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

لم يقل: فاستجبنا له لأنه نبي فقط، ثم تنتهي القصة عنده. بل فتح بابها لكل مؤمن:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

ليست ظلمات يونس قابلةً للتكرار في صورتها، لكن قانون النجاة باقٍ: توحيد صادق، وتنزيه لله، واعتراف بالتقصير، ودعاء لا ييأس.

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)؛ والغم هو الحزن الذي يغطي القلب ويطبقه. لم يكن في بطن الحوت محاصر الجسد فحسب، بل مثقل الروح بما وقع. فنجاه الله من الظرف الخارجي ومن ثقله الداخلي.

قد يخرج الإنسان من المشكلة ويظل الغم مقيماً فيه؛ فيعيش بعد النجاة أسيراً لذاكرتها. أما نجاة الله الكاملة فتستخرج القلب أيضاً من بطن الحزن، فلا تبقى المحنة تبتلعه بعد انتهائها.

ولم يقل: نسمع المؤمنين فقط، بل (نُنْجِي). إنه وعد يفيض رجاءً، مع التسليم بأن صور النجاة ومواقبتها يختارها الله بحكمته. قد ينجيك بإزالة الشيء، أو بإزالة خوفه منك، أو بتحويله إلى رفعة، أو بحفظ دينك حتى تلقاه.

وكذلك ننجي المؤمنين

هذه العبارة تمتد من قاع البحر إلى كل قلب غريق:

لمن أحاطت به ديون لا يرى لها مخرجاً.

ولمن أثقله مرض طويل.

ولمن ظلمته يد لا يستطيع دفعها.

ولمن أخطأ ثم ظن أن خطأه أغلق باب العودة.

ولمن دخل باختياره طريقاً مظلماً ثم استحيا أن يرجع.

تقول له: لا تجعل الظلمة حجةً على انقطاع الطريق إلى الله. يونس لم يكن في مسجد مضيء حين نادى، بل في موضع لا يملك فيه سبباً واحداً. وكانت قلة الأسباب هي التي أظهرت له كفاية المسبب.

ولا تجعل خطأك حجةً على اليأس. الاعتراف الذي يقودك إلى الله ليس باب هلاك، بل أول باب النجاة. الشيطان يريدك إما أن تنكر خطأك فتبقى فيه، وإما أن تعترف به اعتراف الياوس فتقنط. أما الإيمان فيقول: اعترف، وسبّح، ووحد، وارجع.

إن الله الذي استخرج يونس من بطن الحوت قادرٌ أن يستخرجك من النتائج التي ابتلعتك، إذا صدقت في التوبة وأصلحت ما استطعت. قد تبقى آثار تحتاج إلى صبر، لكن قلبك يعود إلى طريق النور من أول لحظة صدق.

في هذا المقطع تتجاوز ثلاث صور من العبودية:

أيوب يمسه الضر، فيستغيث برحمة الله.

وإسماعيل وإدريس وذو الكفل يطول بهم الطريق، فيحمله الصبر.

ويونس تحيط به الظلمات، فينادي بالتوحيد والتنزيه والاعتراف.

إنها أحوال مختلفة، لكن الباب واحد: الرجوع إلى الله.

الضر لا يُعالج بسوء الظن، بل بمعرفة أرحم الراحمين.

وطول الطريق لا يُعالج بالعجلة، بل بالصبر الذي يثمر صلاحًا.

والظلمة لا تُعالج باليأس، بل بنور: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ).

فليس أخوف ما في البلاء أن يحيط بالجسد، بل أن يغيّر معرفة القلب بربه. فإذا بقي الله عندك أرحم الراحمين في المرض، وبقيت رحمته مقصدك في الصبر، وبقي منزهًا عن كل نقص في الظلمة، فقد حفظت جوهر النجاة، وسيأتي كشف الضر والغم في الموعد الذي يعلمه من لا ينسى نداء عبده.

الفصل السادس عشر

رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا

زكريا حين دعا من وراء الشيخوخة فأورق المستحيل

بعد أن أسمعنا السورة نداء أيوب من سرير الضر، ونداء يونس من طبقات الظلمات، تنقلنا إلى نداء آخر؛ أقل صخبًا في ظاهره، لكنه يحمل وجعًا قديمًا يختبئ في أعماق النفس: وجع الوحدة وانقطاع الامتداد.

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ).

كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، ووهن العظم منه، واشتعل الرأس شيباً، وكانت امرأته عاقراً. الأسباب كلها تقول إن زمن الولد قد مضى، لكن قلب النبي كان يعرف أن الأسباب لا تصدر الحكم الأخير؛ إنها تصف ما يقع عادةً، أما الذي خلقها فليس محكوماً بها.

إن المؤمن لا ينكر الأسباب، لكنه يرفض أن يؤلّهما. يرى استحالة الأمر بمقاييسه البشرية، ثم يرفعها إلى من لا يستحيل عليه شيء.

وكم من باب حكم الناس بأنه أغلق لأنهم فحصوا مفاتيح الأرض وحدها! لكن خزائن الله لا تقف عند حدود الاحتمال البشري، وقدرته لا تبدأ حيث تنتهي قدرتنا؛ بل كانت قدرتنا المحدودة نفسها أثراً من آثار قدرته.

رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا

ما أشد صدق هذه العبارة:

(رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا).

لم يطلب زكريا ولدًا لمجرد أن يحمل اسمه، أو ليزداد به عدد بيته، وإنما كان يخشى على أمانة الدعوة من بعده، ويرجو وارثًا يحمل العلم والنبوة والصلاح. ومع ذلك لا تخلو الكلمات من حرارة الحاجة الإنسانية؛ فالنبي بشر يعرف معنى أن يهدأ البيت فلا يسمع فيه خطو ولد، وأن يتقدم به العمر وهو يرى المسافة من حوله تزداد وحشة.

الإيمان لا يلغي حاجة الإنسان إلى الأنس. قد يكون العبد عظيم الصلة بالله، لكنه يحتاج إلى قلب بشري يشاركه الطريق، وبيت يؤويه، ويد تمسك يده حين يثقل العمر. والله الذي خلق فينا حاجتنا إلى الألفة لا يلومنا على الشعور بالوحدة؛ وإنما يدعونا ألا نحول الوحدة إلى يأس منه أو تعلق مذل بخلقه.

قال: (لَا تَذَرْنِي)؛ وضع وحدته في رعاية ربه. لم يعالجها بعلاقة محرمة، ولم يملأ فراغها بأي صحبة، ولم يساوم على رسالته كي يحتفظ بمن حوله؛ بل دعا من يملك أن يهبه الأنس طاهرًا مباركًا.

هناك وحدة يؤلمها غياب الناس، ووحدة أشد منها تنشأ حين يحضر الناس وتغيب المودة الصادقة. قد يكون للإنسان أهل، لكنهم يفقدون أهلية الأهل في بعض جوانب الرحمة والنصرة، فيشعر أنه فرد وسط الجمع. وحينها يعلمه دعاء زكريا أن يقول ألمه لله كما هو، دون تكلف ولا خجل.

فليس الضعف أن تقول: لا تذرنني فردًا. الضعف أن تهرب من فرديتك إلى صحبة تفسدك، أو تمنح حاجتك لمن يستعملها ضدك. أما رفعها إلى الله فعبودية؛ لأنك تعترف بأن القلوب جنوده، وأنه وحده يهب الأنس ويحفظه.

وأنت خير الوارثين

لم يترك زكريا دعاءه مفتوحًا على التعلق بالولد، بل ختمه بالحقيقة التي تحرر القلب:

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ).

يا رب، أسألك ولدًا، لكنك الباقي إن لم تأذن به. أرجو امتدادًا من بعدي، لكن رسالتك لا تتوقف على نسلي، ودينك لا يضيع بعجزني، وأنت ترث الأرض ومن عليها.

هذا هو أدب الدعاء: أن تطلب حاجتك بصدق، ثم تبقي الله في قلبك أكبر منها. لا تجعل العطاء شرطًا لعبادتك، ولا تجعل الشيء المطلوب إلهاً خفيًا تتوقف عليه قدرتك على الرضا.

زكريا لا يتظاهر بأنه مستغن عن الولد؛ فقد سألته. ولا يتصرف كأن الولد هو ضمان المستقبل؛ فقد قال: (وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ). جمع بين الاعتراف بالحاجة والتحرر من عبوديتها.

كم من إنسان يدعو بشيء، ثم يتحول دعاؤه في داخله إلى مطالبة لا تقبل غير الصورة التي رسمها! فإذا تأخر المطلوب انكسرت صلته بالله، وكأن الله كان عنده وسيلة إلى الحاجة، لا غاية القلب وربّه.

أما الدعاء الناضج فيقول: أريد هذا يا رب، وأنت تعلم صدق حاجتي إليه، لكنني أعلم أن بقاءك لي أعظم من كل ما يفوتني، وأن حكمتك أرحم بي من اختياري.

فاستجبنا له ووهبنا له يحيى

ثم جاء الجواب:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ).

دعاء شيخ، وزوج عقيم، وأسباب انتهى حسابها إلى الصفر؛ ثم تأتي كلمة (فَاسْتَجَبْنَا) فتبدأ الحياة من حيث انتهت الأرقام.

لم يقل: أعطيناه ولدًا فحسب، بل سماه:

(يَحْيَى).

اسمٌ يحمل الحياة، جاء إلى بيت ظن الناس أن أسباب الحياة الجديدة قد انقطعت فيه. كأن الله جعل اسم العطاء جوابًا على الموت الذي توهمته الأسباب.

وهبه الله نبيًا زكيًا، لا مجرد ولد يملأ الفراغ. كان العطاء موافقًا لعمق الدعاء؛ فقد أراد زكريا وريثًا للرسالة، فجاءه من آتاه الله الحكم صبيًا، وجعله حنئًا وزكاةً وبرًا بوالديه.

وعطاء الله حين يأتي قد يكون أدق من أمنيائنا؛ نطلب صورةً عامة، فيهبنا معنى أرفع منها. يسأله العبد أن يزيل الوحدة، فيهبه صحبةً تعينه على الجنة، لا مجرد حضور يملأ الوقت. ويسأله رزقًا، فيرزقه رزقًا لا يفسد قلبه. ويسأله علمًا، فيمنحه علمًا يورث الخشية لا الغرور.

وأصلحنا له زوجة

لم تكتف الآية بذكر هبة يحيى، بل قالت:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ).

الإصلاح هنا يشمل ما كان يمنع الولد، وقد يتضمن من صلاح الحال والخلق ما تكتمل به نعمة البيت. فالاستجابة لم تكن تغييرًا في زكريا وحده، بل إصلاحًا للبيئة التي سيولد فيها العطاء.

أحيانًا نطلب من الله ثمرةً، بينما يعلم أن التربة تحتاج إلى إصلاح أولاً. نريد نعمةً جديدة، لكن بعض ما في حياتنا لا يزال غير مهياً لحملها. فيؤخر الثمرة ليصلح الموضع الذي ستنزل فيه؛ ولو جاءت قبل ذلك ربما تحولت إلى عبء أو ضاغت.

وكم يطلب الإنسان علاقةً صالحة دون أن يصلح نفسه لتكون أهلاً لها! يريد من الآخر رحمةً وصبراً وفهماً، ولا يسأل: هل أملك أنا ما أطلبه؟ إن بناء البيت لا يكون بالعثور على الشخص المناسب وحده، بل بأن يصبح كل طرف مناسباً لحمل الأمانة.

قال: (أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)؛ فالإصلاح هبة من الله ينبغي طلبها. لا تتغير القلوب بالصراخ، ولا تُبنى البيوت بتبادل الاتهام، وإنما بالحكمة والمصارحة والدعاء والمجاهدة، ثم بتوفيق الله الذي يؤلف بين القلوب ويصلح ما عجزت عنه الوسائل.

يسارعون في الخيرات

ثم تكشف الآية لماذا كانت هذه الأسرة موضعاً للاستجابة:

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

ثلاث خصال ترسم هيئة القلب الذي يعيش قريباً من الله:

المسارعة في الخيرات.

والدعاء رغباً ورهَباً.

والخشوع لله.

قال: (يُسَارِعُونَ)، ولم يقل: يفعلون فقط. كانوا يرون فرصة الخير كأنها باب قد يُغلق، فيبادرون قبل أن يسرق التردد قدرتهم، أو يسرق الموت زمنهم.

النفس تسارع غالباً إلى حظوظها؛ إذا لاح مال أو مدح أو لذة أسرع، لكنها تؤجل الصدقة والتوبة وصلة الرحم. فجاء الأنبياء ليعيدوا توجيه السرعة: لا تكن عجولاً في طلب الدنيا، لكن كن سريعاً إلى ما يبقى.

والمسارعة لا تعني الطيش بلا علم، بل تعني ألا يتخذ الإنسان التفكير ذريعةً للهروب من الواجب الواضح. هناك أمور تحتاج إلى تأنٍّ، لكن هناك خيرًا نعرفه ثم نؤجله لأن النفس ثقيلة: اعتذار يجب أن يقال، ومظلمة ينبغي ردّها، وقريب ينتظر الوصل، ومحتاج يمكن إيعانته، وصفحة ينبغي أن تُطوى بالتوبة.

كم من خير مات في كلمة: لاحقًا.

ويدعوننا رغبًا ورهبًا

(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا).

دعأؤهم لم يكن علاقةً أحادية تقوم على الخوف وحده أو الرجاء وحده. كانوا يرغبون في رحمة الله وفضله، ويرهبون عدله وعقابه. يرجونه فلا يقنطون، ويخافونه فلا يأمنون مكر أنفسهم.

إذا انفرد الخوف ربما صنع يأسًا، وإذا انفرد الرجاء ربما صنع غرورًا. أما القلب السائر إلى الله فيطير بجناحين؛ إذا غلبه ذنبه ذكّر نفسه بالرحمة، وإذا أغرته الطاعة ذكّر نفسه بالحساب.

ورغبًا لا تعني الرغبة في العطاء الدنيوي وحده، بل الرغبة في الله ورضاه وقربه. فالعابد قد يبدأ بطلب النعمة، ثم يرتقي حتى يصبح أعظم نعيمه أن يعرف المنعم ويحبه.

ورهبًا ليست خوفًا يدفع إلى الفرار من الله، بل خوفٌ يدفع إلى الفرار إليه. فالذي يخاف مخلوقًا يبتعد عنه، أما الذي يخاف الله فيقترب منه؛ لأنه يعلم أن لا منجى منه إلا إليه.

وكانوا لنا خاشعين

(وَكَاثُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

الخشوع انكسار القلب لجلال الله وسكونه بين يديه. لم يكن دعاؤهم كلماتٍ مرتفعةً وقلبًا غائبًا، بل كانت أرواحهم حاضرةً في النداء.

قد يتكلم اللسان بالدعاء بينما القلب متكئ على الأسباب وحدها، وقد يطلب الإنسان من الله وعينه الباطنة كلها متعلقة بالبشر. أما الخشوع فيخلع عن النفس وهم الاستحقاق؛ فلا تقول: لماذا لم يُعطَ لي؟ بل تقف فقيرةً تعرف أن كل عطاء فضل.

والخشوع ليس مظهر حزن دائمًا، بل حقيقة تمنع القلب من التكبر على أمر الله. قد يخشع الإنسان وهو يعمل ويبتسم ويعمر الحياة؛ لأن الخشوع موضعه أن يعرف مقامه أمام ربه.

وهذه الصفات تفسر بعضها بعضًا: لأنهم خاشعون لم يتكبروا عن الدعاء، ولأنهم يدعون رغبًا ورهبًا لم يركنوا إلى أعمالهم، ولأنهم يرجون الله سارعوا في الخيرات.

فالعمل والدعاء والخشوع ليست طرقًا متفرقة، بل حياة واحدة: تعمل كأنك مسؤول عن السعي، وتدعو لأن النتيجة بيد الله، وتخشع لأنك تعرف أن توفيقك إلى العمل نفسه فضل منه.

الفصل السابع عشر

وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا

مريم حين اختار الله طهرها بابًا لآيةٍ للعالمين

بعد بيت زكريا الذي أخرج الله منه الحياة من وراء العقم والشيخوخة، تأتي مريم عليها السلام، ليخرج الله على يديها حياةً من غير أب؛ فتنوّل الآيات لتعلن أن الأسباب عبيدٌ لأمره: يصلح العقيم فيلد، ويخلق من غير الطريق المعتاد، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَفَقَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ).

لم تسم الآية مريم هنا، بل عرّفناها بالصفة التي كانت عنوان كرامتها: (الَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا).

الطهر ليس هامشًا في قصتها، بل المدخل الذي قدّمها به القرآن. في عالم يُختزل فيه الإنسان كثيرًا في جسده، تقف مريم لتقول إن الجسد أمانة، وإن العفة ليست خوفًا من الحياة، بل سيادةً على الشهوة، وحفظٌ لحرمة الروح.

الإحصان بناءٌ حصن؛ وكأن العفة ليست فراغًا أو غياب تجربة، بل فعل حماية واعٍ. يحصّن الإنسان بصره، وخلوته، وعلاقاته، ومداخل قلبه؛ لأنه يعرف أن الانهيارات الكبيرة تبدأ غالبًا من ثغرات استُصغرت.

وليس الطهر قسوةً على الغريزة التي خلقها الله، بل وضعها في الطريق الذي يحفظ كرامة الإنسان والأنساب والقلوب. الإسلام لا يحتقر الجسد، ولذلك لا يتركه للعبث؛ وما كان بلا قيمة لا يحتاج إلى حدود تحميهِ.

حين يصبح الطهر موضع ابتلاء

كانت عفة مريم ظاهرة، ومع ذلك ابتُلِيت بأمرٍ سيجعل قومها يواجهونها بأقصى التهم. ومن دقة البلاء أن يأتي الإنسان أحياناً في أكثر المواضع التي حافظ عليها؛ فتتهم الأمانة بالخيانة، والصادق بالكذب، والطاهر بما أفنى عمره في اجتنابه.

وهنا يبلغ الألم غايته: ليس أن يؤذيك الناس بخطأ فعلته، بل أن ينسبوا إليك نقيض حقيقتك.

وقد كان الله قادراً أن يمنع ألسنتهم منذ اللحظة الأولى، لكنه جعل براءة مريم آيةً يتكلم بها المسيح في المهد. تأخرت البراءة عن لحظة الصدمة، لكنها جاءت في صورة لا يستطيع البشر صنعها.

وكم من بريء يتمنى أن تظهر الحقيقة فوراً، لأن ساعات الاتهام ثقيلة! لكن الله قد يؤخر كشفها لحكمة، ويطلب من صاحبه أن يسكت حيث يعجز الكلام البشري عن اختراق جدار الظن.

إن دفاع الإنسان عن نفسه حق، لكن هناك مواضع يصبح فيها كثرة الدفاع وقوداً للمتهمين؛ لأنهم لا يبحثون عن الحقيقة. عندها يكفي المؤمن أن يعلم أن الله يعرفه، وأن يترك للحق موعده.

الناس رأوا ظاهراً لا يفهمونه، أما الله فكان يصنع من ذلك الظاهر آية للعالمين. وكم من مشهد في حياتنا حكمنا عليه من لحظته، ولو رأينا تمام القصة لخجلنا من استعجالنا!

فنفخنا فيها من روحنا

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا).

أضاف الله الروح إلى نفسه إضافة تشريف، لا أنها جزء من ذاته سبحانه؛ تعالى الله عن التجزؤ والحلول، ليس كمثله شيء. إنما هي روح مخلوقة بأمره، شرفها بالإضافة إليه، كما يقال: بيت الله وناقته الله.

والنفخ كان بواسطة الملك بأمر الله، فكان عيسى عليه السلام خلقاً من خلق الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحاً منه على معنى التشريف والخلق بأمره، لا ابناً لله ولا جزءاً من الألوهية.

إن المعجزة تثبت القدرة، ولا تنقل المخلوق إلى مقام الخالق. آدم خلق بلا أب ولا أم، وحواء خلقت من رجل بلا أم، وعيسى خلق من امرأة بلا أب، وسائر البشر من أب وأم؛ لتظهر القدرة في صور متعددة، ويبقى الخالق واحداً.

ولو كان خلق عيسى من غير أب موجباً للألوهية، لكان آدم أولى بهذه الدعوى، لكنه عبد الله ونبيه. فالقرآن يحفظ لعيسى مقامه العظيم دون غلو، ويحفظ التوحيد من أن تتحول المعجزة إلى شبهة.

ومريم نفسها لم تكن شريكة في الخلق، بل عبدةً مصطفىاً تلقت أمر الله وخضعت له. عظمة قصتها في عبوديتها، لا في رفعها عن مقام البشر.

وجعلناها وابنها آية

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ).

لم يقل: آيتين، بل آية؛ لأن قصة الأم والابن وحدة واحدة في الدلالة. طهر مريم، وحملها، وميلاد عيسى، وكلامه في المهد، ورسالته؛ كلها تشهد للقدرة الإلهية والتوحيد.

مريم آية في تسليمها، وعيسى آية في خلقه. هي تحمل المعجزة في جسدها، وهو يحمل الرسالة في حياته. لكن كليهما يرد الناس إلى الله، لا إلى ذاته.

والآية ليست غايةً في نفسها؛ إنها علامة تدل على غيرها. فمن وقف عند عيسى وعبده، فقد وقف عند العلامة ولم يصل إلى من تدل عليه. كما أن من رأى الشمس ثم عبدها نسي أنها مخلوقة تشير بنظامها إلى خالقها.

(لِلْعَالَمِينَ)؛ تجاوزت القصة زمنها ومكانها، وبقيت امتحاناً للبشر: فريق جفا عيسى واتهم أمه، وفريق غلا فيه حتى رفعه فوق العبودية، والقرآن يقيم طريق الحق بين الجفائين: مريم صديقة طاهرة مصطفىة، وعيسى رسول كريم وعبدٌ لله.

والحق لا يحتاج إلى الانتقاص من فضل أحد كي يحفظ التوحيد. بل
إن معرفة مقامهم الصحيح هي عين تكريمهم؛ فلا يكرّم النبي بأن
تُنسب إليه الألوهية التي لم يدّعها، بل بأن يُتبع في عبوديته التي دعا
إليها.

الفصل الثامن عشر

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

النَّبِيُّاتُ نَهْرٌ وَاحِدٌ حِينَ مَرَّقَ النَّاسُ ضِفَافَهُ

بعد أن مرّ موكب الأنبياء من إبراهيم إلى نوح، ومن داود وسليمان إلى أيوب ويونس وزكريا ومريم وعيسى عليهم السلام، تكشف السورة السر الذي يجمعهم جميعاً:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).

لم يكونوا جزراً متباعدة في التاريخ، ولا أصحاب عقائد متنافسة، بل أمة واحدة في أصل الإيمان والوجهة والعبودية. تنوعت شرائعهم في بعض التفاصيل، لكن ربهم واحد، ودعوتهم واحدة، وحقيقة رسالتهم واحدة:

أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

إِبْرَاهِيمَ حَطَمَ الْأَصْنَامَ لَهُذِهِ الْكَلِمَةُ.

وَنُوحَ صَنَعَ السَّفِينَةَ عَلَيْهَا.

وِدَاوُدَ حَكَمَ وَسِيحَ بِهَا.

وَسُلَيْمَانَ سَخَّرَ الْمَلِكُ فِي خِدْمَتِهَا.

وَأَيُّوبَ صَبَرَ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ رَبَّهَا.

وَيُونُسَ نَادَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ.

وَزَكَرِيَّا دَعَا تَحْتَ سُلْطَانِهَا.

ومريم سلّمت، وعيسى جاء عبداً ورسولاً يدعو إليها.

إن قصصهم ليست فصولاً متجاورة اعتباطاً؛ إنها أوجه متعددة لحقيقة واحدة. التوحيد لا يظهر في العقيدة المنطوقة فحسب، بل في الصبر والحكم والطهر والدعاء والهجرة والقوة. كلما خضع جانب من الحياة لله دخل في معنى: (فَاعْبُدُون).

أمة واحدة

الأمة الواحدة هنا ليست وحدة نسب أو أرض أو لغة، بل وحدة الرسالة. قد تفصل بين النبي والنبي قرون، ويعيشان في موطنين متباعدين، لكن قربيهما في الحقيقة أعمق من قرب رجلين جمعهما مكان وفرّقتهما العقيدة.

وهذا يعيد تعريف القرابة: هناك قرابة الطين، وهناك قرابة الروح. الأولى لها حقوقها ومودتها، لكن الثانية تربط الإنسان بموكب يمتد من آدم إلى محمد ﷺ.

حين يقرأ المؤمن قصص الأنبياء لا يقرأ تاريخ غرباء؛ إنه يقرأ سيرة أسرته الإيمانية. نوح أب في الصبر، وإبراهيم أب في التوحيد، وأيوب أخ في البلاء، ويونس رفيق كل مكروب، ومريم أخت الطهر، وزكريا معلّم الرجاء.

إنهم ليسوا ذكريات محفوظة في النص، بل صحبة روحية يتقوى بها المؤمن. إذا استوحش من طريقه، نظر خلفه فرأى خطى الأنبياء فيه، فعرف أن غربته ليست وحدة، بل انضمام إلى أشرف موكب.

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون).

ما دام ربكم واحدًا، فينبغي أن تكون وجهة العبادة واحدة. وحدة الربوبية تستلزم وحدة العبودية؛ فلا يعقل أن يعترف الإنسان بأن الله خلقه ورزقه ودبره، ثم يوزع طاعته المطلقة وخوفه ورجاءه على غيره.

قال: (رَبُّكُمْ)؛ الذي ربّاكم بالنعيم، وأخرجكم من العدم، وحفظكم في أطوار الضعف. فالعبادة ليست تكليفًا صادرًا من قوة غريبة، بل استجابة للمربي والمنعم والرحمن.

ثم قال: (فَاعْبُدُون). لم يقل: فتحدثوا عني، أو انتسبوا إلى رسلي فحسب. الغاية عبادة تغير الحياة. فما قيمة الانتساب إلى إبراهيم إذا أبقى الإنسان أصنامة في قلبه؟ وما قيمة الإعجاب بصبر أيوب إذا ساء ظنه بالله عند أول مس؟ وما قيمة ترديد دعاء يونس إذا أبى الاعتراف بخطئه؟ وما قيمة محبة الأنبياء إذا خالف الطريق الذي عاشوا وماتوا عليه؟

العبادة هي البرهان العملي على أننا فهمنا وحدتهم.

وتقطعوا أمرهم بينهم

ثم تكشف السورة ما فعله الناس بهذه الوحدة:

(وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ).

كان الأمر واحدًا، لكنهم قطعوه بينهم. جعل كل فريق جزءًا من الدين ملكًا خاصًا به، وتعصب لاسم، وبنى حول نفسه حدودًا، ثم نسي الأصل الذي يجمعه بغيره.

والتعبير (تَقَطُّعُوا) يصور التمزق كأنهم هم أنفسهم صاروا قطعًا بعدما كان الوحي يريدهم أمة. لم يقطعوا الأمر فقط؛ تقطعت قلوبهم وعلاقاتهم ومصائرهم الدنيوية بقدر ما عبثوا بوحدة الحق.

بدأ الاختلاف من انحراف في التصور، ثم تحول إلى هويات مغلقة، ثم إلى خصومات يقتل فيها الأخ أخاه باسم النبي الذي جاء ليجمعهما على الله.

إن البشر قادرون على تحويل الدين الذي أنزله الله ليحررهم من العصبية إلى عصبية جديدة. بدل أن تكون الأسماء جسورًا إلى المعاني، تصبح جدرانًا. وبدل أن يسأل الإنسان: ما الحق؟ يسأل: مَنْ قاله؟ وهل هو من جماعتنا؟

وليس ذم التقطع دعوةً إلى إلغاء الفروق العلمية أو التنازل عن الحقائق؛ فالحق لا يُحفظ بتمبيع الحدود بين الصواب والخطأ. إنما المذموم أن يتحول الاجتهاد إلى تعصب، والخلاف إلى ظلم، والانتماء إلى حجاب يمنع الإنصاف.

يمكن أن نختلف ونبقى عادلين، وأن نرد القول ونحفظ لصاحبه كرامته، وأن نتمسك بما نراه حقاً دون أن ندعي احتكار رحمة الله أو معرفة السرائر.

الوحدة القرآنية ليست اجتماعاً على الفراغ، بل اجتماع على رب واحد وعبادة واحدة ومرجع أعلى. وكل وحدة تُطلب بإقصاء الوحي عن مركزها قد تجمع الأجساد زمناً، لكنها لا تعالج التنازع العميق في القلوب.

كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ

(كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ).

بعد أن تقطعوا جماعاتٍ في الدنيا، سيعودون أفراداً إلى الله. لن تدخل الأسماء الحزبية والعرقية والمذهبية القبر مع أصحابها بوصفها أذكاراً. هناك يُسأل كل إنسان: ماذا فعل بالحق الذي بلغه؟ هل أنصف؟ هل اتبع الدليل؟ هل جعل انتماءه خادماً للحق، أم جعل الحق خادماً لانتمائته؟

قد يختبئ الفرد في الدنيا داخل الجماعة؛ يردد ما تقول، ويظلم من تظلم، ويطمئن لأن الخطأ موزع على عدد كبير. لكن قوله: (كُلُّ) يخرجهم من الاختباء. سيرجع كل واحد وحده، حاملاً نصيبه من الفعل والصمت والتحريض.

الرجوع إلى الله يحرر المؤمن من تقديس الجماعة؛ يحب جماعته وينصرها في الحق، لكنه يعلم أنها لن تحمل عنه خطأه. وإذا ظلمت لم يقل: أنا واحد منهم، بل تذكر أنه واحد راجع إلى الله.

وهو في الوقت نفسه يحرره من كراهية المخالف على نحو يجرده من إنسانيته؛ فالله هو الذي سيتولى حسابه، وليس له أن يتجاوز العدل بحجة الانتصار للحق.

فلا كفران لسعيه

ثم يقرر الله ميزان النجاة والعمل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ).

جمع النص بين الإيمان والعمل. الإيمان يمنح العمل وجهته وقبوله، والعمل يكشف حياة الإيمان وأثره. فلا يكفي ادعاء القلب إذا لم يثمر صلاحًا، ولا يغني العمل عن أصله الذي يتوجه به صاحبه إلى الله.

قال: (مِنَ الصَّالِحَاتِ)؛ ومن هنا تفيد شيئاً من الصالحات بحسب الاستطاعة. لم يشترط أن يأتي الإنسان بكل أبواب الخير حتى يُكتب له سعيه. الطريق إلى الله مفتوح بأعمال قد تبدو صغيرة، لكنها صادقة.

قد تعجز عن تغيير العالم، لكنك تستطيع ألا تزيد ظلمه. وقد لا تملك إغناء الفقراء، لكنك تملك أن تطعم واحدًا. وقد لا تقدر على إزالة الحزن كله عن قلب إنسان، لكن كلمة صادقة قد تمنحه قدرة على يوم آخر.

الله لا يحتقر السعي الصغير، فلا تحتقره أنت.

(فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ).

لن يُجحد عمله، ولن يُعطى أو يُنسى. البشر قد يستعملون جهدك ثم ينسونك، وقد ينسبون خيرك إلى غيرك، وقد يقابلون إخلاصك بالحدود. أما الله فلا كفران عنده لسعي.

اختيار كلمة (سَعْيِهِ) بديع؛ فلم يقل لنجاحه أو لثمرته. لأن الإنسان لا يملك دائماً النتائج، لكنه يملك السعي. قد يدعو ولا يؤمن على يديه أحد، كما وقع لبعض الأنبياء، لكن سعيه مكتوب. وقد يبدأ إصلاحاً ثم يموت قبل تمامه، لكن خطاه لم تضع.

في موازين الناس يُحتفى بمن وصل، أما في ميزان الله فيُكتب من سار صادقاً ولو حال القدر بينه وبين الوصول. وهذا يهب العامل سكينَةً عظيمة: افعَل ما تستطيع بإخلاص، ولا تجعل قيمة نفسك رهينة بما يظهر لك من الثمار.

قد تزرع ولا ترى الحصاد، لكن الله يكتب حركة اليد التي بذرت، والنية التي أرادت النفع، والصبر الذي قاوم اليأس.

ثم أكد الحفظ:

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ).

العمل لا يضيع في زحام العالم. له كتابة تخصه، تحفظه حتى يلقاه صاحبه. قد تنسى يوماً بكيت فيه من خشية الله، أو معروفاً فعلته ثم مضيت، أو رغبةً في الخير عجزت عنها، لكن الله لم ينس.

وما أجمل أن يعيش الإنسان وهمه أن يكتب الله له، لا أن يكتب الناس عنه. صفحات السمعة قد تُمحي بموجة نسيان، أما صحيفة الله فلا تسقط منها ذرة.

وفي المقابل، ما أشدها من رقابة: الكلمات التي ظننا أنها تبخرت مكتوبة، والآثار التي تركناها في القلوب مكتوبة، وما نشرناه فاققدى به غيرنا مكتوب. الكتابة الإلهية تجعل للحياة وزناً؛ فلا لحظة بلا معنى، ولا حركة بلا أثر.

تبدأ هذه الآيات بدعاء رجل خشي أن يبقى فرداً، وتنتهي بضمان أن سعي المؤمن لن يكون فرداً ضائعاً في الكون؛ فالله يكتبه ويحفظه.

ويأتي بينهما طهر مريم، وآية عيسى، ووحدانية الأنبياء، وتفرق البشر؛ لنقول السورة إن الوحدة الحقيقية ليست مجرد أن يكون حولك الناس، بل أن تكون داخل موكب العبودية الواحد. قد تفقد بعض صحبة الأرض، لكنك إذا عشت على إيمان الأنبياء لم تكن وحيداً.

فلا تخش أن تكون فرداً إذا كان قلبك مع الله، ولكن ادعه أن يهبك أهلاً للخير كما دعا زكريا. ولا تجعل حاجتك إلى الأنس تدفعك إلى التقطع عن الحق؛ فكلُّ إلى الله راجع. واعمل من الصالحات ما استطعت، فإن الناس قد لا يرون سعيك، وقد يجحدونه إذا رأوه، أما الله فقد وعد: **(فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ).**

الفصل التاسع عشر

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ

حين ينفث السدُّ وتستيقظ العيونُ على الحقيقة الأخيرة

بعد أن قررت السورة أن سعي المؤمن محفوظ لا يُجحد، وأن كل الناس إلى الله راجعون، انتقلت إلى اللحظة التي يقع فيها ذلك الرجوع، ويُفتح فيها ما أُغلق، وتسقط المسافات بين عالم الغفلة وعالم الحقيقة:

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ○ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ○ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ).

افتتحت السورة بقول الله تعالى:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ).

وها هي في خواتيمها تعيد اللفظ والمعنى:

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ).

في البداية كان الحساب قريباً والناس غافلين، وهنا صار الوعد كأنه حاضر، وانقلبت الغفلة اعترافاً. وما بين القرب الأول والقرب الأخير يمتد العمر؛ تلك المساحة القصيرة التي يملك فيها الإنسان أن يستيقظ بإرادته قبل أن توقظه الحقيقة قسراً.

رجعة لا تكون إلى دار العمل

قال تعالى:

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ).

جاءت الآية في سياق الرجوع إلى الله والجزاء. وقد تنوعت عبارات المفسرين في تركيبها، ومن معانيها أن من نزل بهم الهلاك لا يعودون إلى الدنيا ليستأنفوا فرصة العمل والتوبة؛ فقد انقضت مهلة الاختيار، وصاروا موقوفين للرجوع الأخير إلى الله.

إن الحياة باب يُفتح مرة واحدة. لا يعود الإنسان بعد موته ليعيد صياغة قراراته، ولا تُسترجع الأيام التي أنفقت، ولا تُمحي المظالم بالتمني بعدما أغلقت دار العمل.

وما أعظم نعمة الحاضر! نحن ننظر إليه أحياناً كأنه وقت عادي نريد التخلص منه إلى غدٍ أفضل، مع أنه المساحة الوحيدة التي نستطيع فيها أن نصلح. الماضي خرج من اليد، والمستقبل لم يدخلها، وليس لنا إلا هذه اللحظة التي نقرر فيها أن نرجع إلى الله قبل الرجوع الذي لا اختيار فيه.

كثير من الناس لا يرفض التوبة من حيث المبدأ، لكنه يرفضها في يومه هذا. يقول: سأرجع، لكنه يريد رجعة بلا موعد، كأنه ضمن أن يظل الباب منتظراً حتى ينتهي من شهواته.

وما أخطر كلمة: بعد حين. فقد كانت أعمار كثيرة معلقة بها، ثم جاء الأجل قبل الحين الذي اختاروه.

إن المرء لا يحتاج إلى أن يعرف كم بقي من عمره كي يتوب؛
يكفيه أنه لا يعرف.

حين يُفتح يأجوج ومأجوج

ثم تنتقل السورة إلى علامة كبرى من علامات اقتراب الساعة:
(حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ).

يأجوج ومأجوج أمّتان من بني آدم، حجبهم السد الذي أقامه ذو القرنين كما أخبر القرآن، وسيأتي الوقت الذي يأذن الله فيه بانفتاحه وخرجهم. ونؤمن بخبر الوحي كما جاء، دون أن نربطه جزماً بقوم معاصرين أو خرائط متوهمة لا يقوم عليها دليل.

إن من أدب التعامل مع الغيب ألا نملاً مجمله بتخميناتنا، ولا نجعل كل حدث عالمي تحقيقاً متعجلاً لنبوءة. فالغيب حق، لكن دعوى تعيينه تحتاج إلى حق. وقد يسيء الإنسان إلى الآية حين يجعلها تابعة لعناوين الأخبار المتغيرة، بدل أن يبقياها في جلال الخبر الإلهي حتى يكشفها موعدها.

قال تعالى: (فُتِحَتْ)؛ كأن قوةً ظلت محجوزةً خلف حاجز، ثم جاء الإذن فانطلق ما كان ممنوعاً. وكل سد في الكون قائم بإذن الله، وكل قوة محبوسة لا تتجاوز الحد الذي قدره لها حتى يأتي وقتها.

قد يظن الإنسان أن الحواجز المادية هي التي تحفظ العالم بذاتها، لكن وراء الحديد والحجارة أمرٌ إلهي. فإذا انتهى الأجل لم يصمد الحاجز لمجرد أنه بدا قويًا، وإذا أراد الله الحفظ ثبت الشيء الضعيف فوق ما تقدر عليه القوى.

إن السد لا يبقى بصلابته وحدها، كما أن السفينة لم تتجُ بخشبها وحده؛ بل الأشياء كلها تأخذ أثرها من الإذن الإلهي الذي أودع فيها خصائصها وحفظ نظامها.

ومن كل حذب ينسلون

(وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ).

الحذب هو المكان المرتفع، وينسلون أي يسرعون في الانتشار. يرسم القرآن حركةً جارفةً سريعةً؛ أعداد تتدفق من كل مرتفع، حتى يبدو المشهد كأنه امتلاء الأرض بقوة لا يستطيع البشر احتواءها.

إن السكون الذي اعتاده الناس يتبدل في لحظة إلى حركة هائلة، والنظام الذي ظنوه ثابتًا يدخل مرحلة النهاية. وهكذا تعلمنا القيامة أن استقرار العالم مؤقت؛ ليس لأن نظامه هش في ذاته، بل لأن له أجلًا حدده الله.

كل ما نراه ثابتًا يتحرك نحو نهايته: الجبال، والبحار، والدول، والأجساد. وإنما بطء الحركة عن أعيننا يوهمنا بالدوام. نحن نعيش داخل تغير متصل، لكن الألفة تجعلنا نراه استقرارًا.

وقد اختارت الآية صورة الحركة من المرتفعات؛ كأن كل أفق يرسل جماعاته، فلا تبقى جهة خالية. إنها صورة تخلع من الإنسان وهم السيطرة. حضارة تظن أنها أحاطت بالكوكب علماً وأمناً، ثم تواجه حدثاً يخرج عن كل حساباتها.

لا يعني ذلك ترك العمل أو الاستخفاف بأسباب القوة؛ بل يعني ألا تتحول القدرة البشرية إلى عقيدة في الاستغناء. نخطط ونحمي ونبني، لكننا نعلم أن التاريخ ليس ملكنا، وأن المستقبل لا يوقع تعهداً بطاعة تصوراتنا.

واقترَبِ الوعد الحق

(وَاقْتَرَبِ الْوَعْدُ الْحَقُّ).

كل وعود البشر قد يدخلها العجز أو التغير أو الكذب، أما وعد الله فهو الحق؛ حق في مصدره، وحق في مضمونه، وحق في وقوعه.

لم يقل: واقتربت القيامة فقط، بل سماها الوعد الحق؛ لأن مجيئها وفاء بكل ما أخبر الله به، وإنصاف لكل مظلوم، وإقامة للحقيقة التي حاول الباطل دفنها تحت القوة والضجيج.

إن القيامة ليست خراب الكون فحسب، بل تمام المعنى. تنتهي فيها مسرحية الادعاء، ويرد كل اسم إلى حقيقته، وكل عمل إلى وزنه، وكل حق إلى صاحبه. وهي لهذا وعد للمؤمن قبل أن تكون وعيداً للمكذب.

المظلوم الذي مات ولم ير إنصافه يحمل الوعد الحق قضيته.

والشهيد الذي بذل روحه ولم ير ثمرة تضحيته يحملها الوعد الحق.
والمصلح الذي سُخر منه ومات غريبًا يحمل الوعد الحق سعيه.
والطاغية الذي أفلت من محاكم الأرض ينتظره الوعد الحق.

فلو كانت القيامة نهايةً مخيفةً بلا عدل، لما سُميت وعدًا بهذا
الجلال. إنها موعد ظهور حكمة الوجود، حين يتبين أن ذرة الخير لم
تضع، وأن ذرة الشر لم تنتج من العلم.

أَبْصَارُ شَاخِصَةٍ

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا).

الشخص أن تظل العين مفتوحةً مرتفعةً لا تطرف من شدة الهول.
تلك العيون التي كانت تغمض عن آيات الله لا تستطيع الآن أن تغمض
عن وعده.

في الدنيا كان الإعراض فعلًا ممكنًا: يستطيع الإنسان أن يغلق
المصحف، وأن يغادر مجلس التذكير، وأن يسخر من الناصح، وأن
يشغل نفسه حتى لا يسمع صوت ضميره. أما هناك فتنتهي حرية
إغلاق العين.

الحقيقة التي لم يريدوا رؤيتها صارت هي المشهد كله.

كم من إنسان يظن أنه إذا تجنب التفكير في الموت فقد أبعد الموت!
وإذا لم يتحدث عن الحساب فقد صار الحساب أقل حقيقة! لكنه لا
يهرب من الشيء، بل من الاستعداد له.

إن إغلاق العين لا يطفى النار، بل يمنع صاحبه من رؤية الطريق الذي يبتعد به عنها. والتذكير بالآخرة ليس صناعةً للخوف المرضي، بل فتحٌ للعين قبل لحظة الشخوص؛ كي ترى الآن فتعمل، بدل أن ترى هناك فتتحسر.

يا ويلنا

أمام الحقيقة خرجت الصرخة:

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا).

اعترفوا بالغفلة التي افنتحت بها السورة. لم يقولوا: لم يأتنا إنذار، أو لم تكن هناك آيات؛ بل قالوا: كنا في غفلة. كانت الحقيقة حاضرة، لكن حضورهم هم كان غائبًا.

والغفلة ليست عدم المعرفة دائمًا؛ قد يعرف الإنسان القيامة، ويتلو أوصافها، ويؤمن بها نظريًا، لكنه يعيش وكأنها لا تمس قراراته. فإذا عرض له مال حرام لم يدخل الحساب في اختياره، وإذا ظلم لم يتخيل الميزان، وإذا اغتاب لم يتذكر الكتابة. هذا إيمان في اللسان لم يتحول إلى يقظة في السلوك.

المعرفة التي لا تعيد ترتيب الحياة تشبه مصباحًا يحمله أعمى البصيرة للآخرين ولا ينتفع بنوره.

وقولهم: (مِنْ هَذَا) يضع الحقيقة أمامهم حضورًا لا يقبل التجريد. كانت الآخرة في وعيهم خبرًا بعيدًا، ثم أصبحت هذا الذي يرونه. وما نحتاج إليه في الدنيا هو أن ننقل الآخرة من كلمة بعيدة إلى حضور أخلاقي قريب؛ أن يصبح الوعد حاضرًا عند القرار، قبل أن يصير حاضرًا عند الجزاء.

ثم تجاوزوا وصف الغفلة إلى الكشف عن أصلها:
(بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ).

(بَلْ) تصحح اعترافهم الأول؛ كأنهم أدركوا أن الغفلة وحدها لا تفسر حالهم. لم يكونوا ضحايا شرود عابر، بل شاركوا في صناعة غفلتهم بالإعراض والظلم.

لقد جاءتهم الآيات فأعرضوا، وأنذرهم الرسل فسخروا، وأيقظهم الموت فيمن حولهم فعادوا إلى اللهو. كانوا يملكون لحظات للرجوع، لكنهم اختاروا أن يضعوا فوق قلوبهم طبقة بعد طبقة.

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. ظلّموا الله بالشرك، وظلموا الوحي بالتكذيب، وظلموا الناس بالعدوان، وظلموا أنفسهم حين قادوها إلى المصير الذي كانوا قادرين على تجنبه.

كل ظلم للآخر يبدأ ظلمًا للنفس؛ لأن الظالم يكتب بفعله عاقبته هو، حتى لو بدا في اللحظة أنه يحقق مصلحته. يأخذ من مال المظلوم شيئًا، لكنه يضع في صحيفته نارا. يكسب خوف الناس، لكنه يخسر أمان القلب. ينتصر في الخصومة، ويُهزم أمام ضميره وربّه.

وسيعرف يوم القيامة أن أكبر ضحاياه كانت نفسه.

إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم

ثم يأتي الحكم القاطع:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ).

الحصب ما تُوقد به النار ويُلقى فيها. الذين عبدوا من دون الله، ومعبوداتهم الباطلة التي رضىت بالعبادة أو كانت حجارة لا تعقل، يُلقون في جهنم؛ إظهاراً لعجزها وإهانةً للعابدين الذين علقوا بها آمالهم.

أما من عُبد من الصالحين والملائكة وهو كارهٌ لعبادتهم ولم يدع إليها، فلا يدخل في هذا الوعيد؛ وقد جاءت الآيات التالية بالاستثناء والبيان. فالقرآن لا يحمل البريء ضلالاً من غلا فيه، ولا يسوّي بين من دعا إلى الشرك ومن تبرأ منه.

إن الذين عبدوا الحجارة سيرونها وقوداً لا آلهة، والذين تعلقت قلوبهم بأرباب زائفة يرونها عاجزة عن دفع العذاب عن نفسها. يتحول ما ظنوه وسيلة نجاة إلى جزء من مشهد الخيبة.

وهذه عاقبة كل تعلق يزاحم التعلق بالله: قد لا يدخل الشيء النار في صورته المادية دائماً، لكن تعلقك الباطل به يحرقك. المال الذي عبدته يتحول يوماً إلى حسرة، والمكانة التي بعث لها ضميرك تتركك في أشد مواطن الحاجة، والشخص الذي أطعته في المعصية يتبرأ منك.

إن المعبود الزائف يعد الإنسان بالقوة، ثم يورده إلى أعق صور العجز.

أنتم لها واردون

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ).

كانوا في الدنيا يَردون مواطن أصنامهم؛ يقيمون عندها، ويقدمون لها القرابين، ويرجونها. أما في الآخرة فيردون النار هم وإياها. يا له من انقلاب! كان الصنم في موضع التعظيم والعباد عند قدميه، فإذا بهما جميعاً في المصير نفسه. لم يرتفع المعبود الوهمي بعباده، بل هبط العابد إلى عجز معبوده.

كل من يجعل شيئاً غايةً قصوى يتشكل مصيره على صورته. من عبد الفاني وجد الفناء، ومن عبد الهوى وجد التشتت، ومن عبد الناس وجد الخذلان، ومن عبد الله الحي الباقي وجد عنده ما لا يفنى.

لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها

ثم تقيم السورة الحجة من داخل المصير:

(لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ).

لو كانت آلهة بحق لاستطاعت أن تنجي نفسها، فضلاً عن عابديها. دخولها النار برهان أخير على أنها لم تملك من الألوهية شيئاً.

كان هذا البرهان قائماً في الدنيا: ما لا يخلق ولا يرزق ولا ينطق ولا يدفع عن نفسه لا يكون إلهاً. لكنهم رفضوا العقل هناك، فرأوا النتيجة هنا. من لم يستعمل البرهان قبل الحساب، صار المصير نفسه برهانه المتأخر.

(وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)؛ خلود يناقض كل وعد كاذب صنعته الأصنام. كانوا ينتظرون منها القرب والشفاعة والنصر، فإذا بها تشاركهم العجز، ويطول بهم المقام في النار.

وهذا أعظم الخذلان: ألا يخذلك ما عبدت لحظةً، بل ينكشف لك أنك أنفقت حياتك كلها في الاتجاه الخطأ، ثم لا تستطيع العودة لتصحيح خطوة واحدة.

لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ).

الزفير صوت النفس يخرج من شدة الكرب، كأن الصدر تحاول أن تلفظ ما لا تستطيع احتماله. كانوا في الدنيا يملؤون المجالس ضجيجاً وسخرية، فإذا أصواتهم هناك زفير لا يغير المصير.

ثم قال: (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ). انقطاع عن كل صوت يخفف الوحشة، أو عن سماع ما يسرهم، في عزلة العذاب. وقد كانوا في الدنيا صُمًّا عن دعاء الرسل باختيارهم، فصاروا هناك محرومين من السماع الذي ينفع أو يؤنس.

إن الجوارح التي لا تُستعمل في الهداية قد تتحول نعمتها إلى حجة. الأذن التي أُعطيت لتسمع الحق ثم استُعملت في اللهو والباطل، والعين التي أُعطيت لترى الآيات ثم أُغرقت في الحرام، واللسان الذي كان يستطيع ذكر الله ثم امتلأ بالأذى؛ كلها ستشهد على طريقة استعمالها.

النعمة ليست مجرد عطية، بل أمانة تحمل سؤاها معها.

إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

وبعد مشهد النار يأتي الأمان، لنلا يختلط في القلوب مصير أهل التوحيد بمصير من عبدوهم من دون رضاهم:

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ).

الصالحون الذين عبدوا الله ودعوا إليه، والملائكة والأنبياء الذين غلا فيهم بعض أتباعهم، قد سبقت لهم من الله الحسنى، وهم عن النار مبعدون.

ما أبهى كلمة (مُبْعَدُونَ) بعد قوله: (وَارْثُونَ). أولئك يردونها، وهؤلاء يُبعدون عنها؛ لا يقترب منهم لهابها ولا رعبها.

الحسنى سبقت لهم من الله فضلاً، ثم عاشوا في طريقها إيماناً وعملاً. فالنجاة ليست نتيجة غرور الإنسان بصلاحه، بل رحمة سبقت، وتوفيق رافق، وعمل صالح كتبه الله وقبله.

والمؤمن لا يعلم لنفسه على التعيين ما خُتم له، ولذلك لا يتكل على عمله، لكنه يرجو الحسنى من ربه ويطلب طريقها. يعيش بين خوف يحجزه عن المعصية، ورجاء يمنعه من اليأس.

لا يسمعون حسيها

(لَا يَسْمَعُونَ حَسِيَّتَهَا وَهُمْ فِي مَا اسْتَنَّهُتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ).

الحسيس أخفى أصوات النار وحركتها. لا يسمعون حتى همسها البعيد؛ فأمانهم ليس نجاةً بعد اقتراب مرعب، بل إبعاد كامل عن كل ما يزعج نعيمهم.

وفي المقابل:

(وَهُمْ فِي مَا اسْتَنَّهُتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ).

في الدنيا منعوا نفوسهم بعض ما استنهدت حين خالف أمر الله، فوهبهم في الآخرة ما تشتهي النفوس بلا إثم ولا فراق ولا خوف من زوال.

وهذه ليست مقايضةً بسيطةً؛ فنعيم الآخرة ليس مجرد نسخة أكبر من لذات الدنيا. إنه كمال الرضا، وطهارة الشهوة من كل نقص، وحضور النعمة بلا مرض يعكرها، ولا ملل يطفئ بريقها، ولا موت ينتزعها.

كل متعة في الدنيا تحمل ظل الفناء. وأشد ما يؤلم السعيد أنه يعرف في أعماقه أن سعادته عابرة. أما هناك، فيأتي الخلود ليزيل الخوف من قلب النعمة؛ فلا عدّ تنازلياً، ولا وداع ينتظر خلف الفرع.

(خَالِدُونَ)؛ الكلمة التي كان الإنسان يطلب معناها عبثاً في المال والذكر والذرية، يجدها هناك هبةً من الله. لا يشيخ النعيم، ولا يرحل أهله، ولا تتحول الصحة مرضاً، ولا اللقاء فراقاً.

لا يحزنهم الفرع الأكبر

ثم يقول تعالى:

(لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ).

هناك فرع أكبر من كل ما عرفه البشر؛ تتغير فيه السماوات والأرض، وتتكشف القبور، وتجتمع الخلائق. لكن أهل الحسنى لا يحزنهم ذلك الفرع؛ لأن الذي خافوه في الدنيا آمنهم الله منه في الآخرة.

كانوا يشفقون من الساعة، فحملهم الإشفاق على الاستعداد، فلما جاءت آمنهم الله. أما الذين عاشوا آمنين من الحساب بغير حق، صار الأمن الزائف فزعاً.

إن الخوف من الله في الدنيا لا يراد به أن يعيش الإنسان محطماً، بل أن يتخذ من الخوف طريقاً إلى الأمان. يخاف الذنب فيتركه، ويخاف الظلم فيردعه، ويخاف سوء الخاتمة فيسأل الثبات. ثم إذا جاء اليوم الذي تخافه القلوب، وجده قد هيا فيه لنفسه موضع الأمن برحمة الله.

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ).

التلقي استقبال فيه قرب وتكريم. لا يُتركون في هول الحشر يبحثون عن طريقهم، بل تستقبلهم ملائكة الرحمة بالبشرى.

كم احتاج المؤمن في الدنيا إلى كلمة تطمئنه ولم يجدها! وكم سار في طريقه غريبًا، يواجه السخرية والخذلان، ولا يسمع إلا ما يتقل قلبه! هناك تتلقاه الملائكة، لا لتواسيه بمستقبل محتمل، بل لتعلن له تحقق الوعد.

(هَذَا يَوْمُكُمْ).

اليوم الذي بدا في الدنيا بعيدًا صار حاضرًا: هذا. لكنه على خلاف حضور العذاب للمكذبين، حضور فرح للمؤمنين. اليوم نفسه الذي شخّص أبصار قومٍ رعبًا، تفتحه الملائكة لقومٍ بشاره.

ليست الأيام متساويةً في معناها لكل الناس؛ الحدث الواحد قد يكون نهاية ظلمٍ لطاغيةٍ وبداية إنصافٍ لمظلوم. والقيامة هي أعظم لحظة افتراق بين المصائر.

(الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)؛ لم يكن صبركم وهمًا، ولا تضحياتكم ذاهبةً، ولا رجاءكم قصةً كنتم تسلّون بها أنفسكم. هذا هو الوعد وقد صار دارًا تدخلونها.

بين غفلة البداية وأمان النهاية

تقابل هذه الآيات بين فريقين:

فريق عاش في غفلة، فلما حضر الوعد قال: يا ويلنا.

وفريق عاش على الوعد، فلما حضر قالت له الملائكة: هذا يومكم.

الأول كان يرى الآخرة تهديدًا يعكر عليه لذته، فهرب من ذكرها حتى اصطدم بها.

والثاني رآها وطنًا أبدئًا، فجعلها ميزانًا ينقذ لذته من الحرام وألمه من العبث.

ليس الفرق أن المؤمن لم يحب الدنيا أو لم يتألم فيها، بل أنه لم يسمح للحظة أن تخفي عنه النهاية. عاش وقلبه يعرف أن وراء كل فقد لقاءً، ووراء كل ظلم ميزانًا، ووراء كل طاعة كتابة لا تجحد.

إن اقتراب الوعد الحق ليس دعوة إلى هجر الحياة، بل إلى تطهيرها من الوهم. حين تعرف أن العالم سينتهي، لا تتوقف عن البناء؛ بل تبني ما يستحق أن تجده عند الله. وحين تعرف أن المال سيزول، لا ترمه؛ بل تحوله إلى صدقة باقية. وحين تعرف أن الناس راحلون، لا تهجر محبتهم؛ بل تحبهم بالعدل والرحمة، فلا تجعل العلاقة طريقًا إلى ظلم الله أو ظلمهم.

الآخرة لا تسلب الأشياء قيمتها، بل تمنحها مقدارها الصحيح.

وتقف الآيات بالقلب أمام سؤال حاسم: ماذا نريد أن نقول حين يصبح الوعد هذا الذي نراه؟

أنقول: (يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)؟

أم نسمع: (هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعِدُونَ)؟

الجواب لا يكتب هناك، بل يكتب الآن: في الخلوات التي لا يراك فيها أحد، وفي الحقوق التي تستطيع أكلها ثم تردّها خوفًا من الله، وفي الطاعات الصغيرة التي تداوم عليها، وفي التوبة التي لا تؤجلها.

فالوعد يقترب سواء استعدنا أم غفلنا؛ غير أن قربه من الغافل نار، وقربه من المؤمن بشارة. والعاقل لا ينتظر أن تشخص عيناه ليرى الحقيقة، بل يفتح قلبه لها الآن؛ حتى إذا جاء الفزع الأكبر وجد الملائكة تتلقاه، ووجد كل صبرٍ ودمعةٍ وسعيٍ صالحٍ قد تحول إلى أمان لا ينقطع.

الفصل العشرون والأخير

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ

حين ينتهي الكون ولا ينتهي وعد الله

بلغت السورة مشهد الفرع الأكبر، حيث تتلقى الملائكة أهل الإيمان بالبشرى:

(هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ).

ثم ترتفع بنا إلى مشهد لا يملك الخيال الإنساني أن يحيط بجلاله: الكون الذي عاش الإنسان تحت سمائه، وبدت له نجومه ومجراته أبعد من النهاية، يُطوى بأمر الله كما تُطوى الصحيفة بعد انتهاء ما كُتب فيها:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

في افتتاح السورة اقترب حساب الإنسان، وفي ختامها تُطوى السماء نفسها. وكأنها تنزع عن القلب آخر ما يتوهم فيه الثبات: ليس الفرد وحده فانٍ، ولا المدن وحدها زائلة، بل العالم المرئي كله له موعد يُطوى فيه.

السماء التي رفع الإنسان إليها بصره منذ طفولته، فراها سقفاً محفوظاً لا يدرك طرفه، تصبح يوماً كالسجل الذي أدى وظيفته، فطواه صاحبه. لا تحتاج إلى جيوشٍ تهدمها، ولا إلى أحقاب تتآكل فيها؛ تكفي إرادة من قال لها في البدء: كوني، ثم يقول لنظامها الذي نعرفه: انتهى أجله.

وإذا كانت السماوات على عظمتها تُطوى، فكيف يتوهم الإنسان أن ملكه الصغير باقٍ؟ كيف يبيع آخرته من أجل منزل سيغادره، أو منصب لا يثبت، أو شهرة لا يتجاوز صداها طبقةً رقيقةً من زمنٍ سيُطوى كله؟

ليس المقصود أن يزهد الإنسان في عمارة الأرض حتى يتركها خراباً؛ بل أن يبني فيها بعينٍ ترى ما وراءها. من عرف أن الصحيفة ستُطوى حرص على أن يكتب فيها ما يسره أن يُقرأ عليه عند الله.

كُطِيَ السَّجَلُ لِلْكَتَبِ

(كُطِيَ السَّجَلُ لِلْكَتَبِ).

تشبيهه يقرب إلى الحس مشهداً فوق طاقة الحس. السجل الذي بُسِطَ عليه الكلمات يُطوى، فتختفي تفاصيله عن العين، لكنها لا تُمحى من علم الكاتب.

وهكذا يطوي الله صفحة العالم الأول بعد أن جرت عليها قصص البشر: وُلِدُوا وماتُوا، أَحْبَبُوا وكرهُوا، آمَنُوا وكفَرُوا، عدَلُوا وظَلَمُوا، بنُوا وهدمُوا. كل حضاراتهم وحروبهم وذكرياتهم كانت سطوراً فوق صفحة الزمن، ثم جاء موعد طيها.

لكن طي الصفحة لا يعني ضياع ما وقع فيها؛ فالذي يطوي السماء هو الذي قال قبل ذلك:

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ).

تُطوى السماء، ولا تُطوى الحقوق عن الحساب. ينتهي المسرح، ولا تضيع أدوار الممثلين. يتغير شكل العالم، لكن كل عمل محفوظ.

إن الإنسان يخشى أن يذهب أثره حين يذهب العالم، لكن القرآن يجيبه: ما كان لله لا يضيع، ولو طويت السماء فوقه. قد تنهدم المساجد والبيوت والمدارس التي بناها الصالحون، لكن عبوديتهم لا تنهدم. وقد تختفي آثار الجراح من أجساد المظلومين، لكن حقهم لا يختفي.

فالله لا يحتاج إلى بقاء الأشياء ليحفظ معانيها؛ علمه سبق وجودها، وأحاط بها في حياتها، ويبقى بعد فنائها.

كما بدأنا أول خلق نعيده

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ).

هذا هو البرهان الذي كرره القرآن في مواجهة إنكار البعث: الذي بدأ الخلق أول مرة لا يعجز عن إعادته. بل إن مفهوم الإعادة أقرب إلى العقل من مفهوم البدء؛ فمن قدر على الإنشاء من العدم، كيف يعجز عن رد ما أنشأه؟

كان الإنسان قبل ولادته لا يملك من أمره شيئاً، ولا يحمل اسمه ولا صورته، ثم جمع الله مادته، وسوى أعضائه، ونفخ فيه الروح المخلوقة، وأخرجه طفلاً يسمع ويرى. أ يكون هذا الخلق الأول ممكناً، ثم تكون إعادته بعد الموت مستحيلة؟

المشكلة ليست في ضعف الدليل، بل في أن الإنسان يستبعد ما لم يألفه. اعتاد الولادة فعدها طبيعية، ولم يعتد البعث فعده بعيداً؛ مع أن الألفة لا تحدد مقدار القدرة المطلوبة للحدث. لو رأى إنسان لم يعرف الولادة جنيناً يتكون في رحم أمه لعدّ ذلك في غرابته أعظم من خروج ميت من قبره.

الله لا يحتاج إلى أن يبحث عن ذرات الأجساد أو يستعيد معلومات ضاعت عنه؛ هو الذي يعلم ما تنقص الأرض منهم، وعنده كتاب حفيظ. فالخلق لم يكن مجهولاً عند البدء، ولن يكون مفقوداً عند الإعادة.

وعداً علينا

ثم يقول تعالى:

(وَعَدَّا عَلَيْنَا).

أوجب الله ذلك على نفسه فضلاً وصدقاً، لا لأن مخلوقاً يلزمه، تعالى الله عن ذلك. إنه وعد صادر عن إرادته وحكمته وكرمه، وقد كتب على نفسه ألا يخلف الميعاد.

وما أعظم السكينة في أن يكون البعث وعدًا، لا احتمالًا! نحن لا نسير إلى مستقبل مجهول في أصله، بل إلى موعد أخبرنا الله بحقيقته، وبيّن لنا طريق النجاة فيه.

غير أن الناس يتعاملون مع وعود الدنيا بيقين أكبر من تعاملهم مع وعد الله. يثق أحدهم بوعد راتب فيخطط له قبل أن يصل، ويثق بموعد سفر فيهيئ أمتعته، ويصدق نشرة جوية فيحمل مظلته، ثم يسمع وعد الله بالحساب ولا يهيئ قلبه!

صدق الإيمان لا يُقاس بحرارة التصديق اللفظي وحدها، بل بمقدار ما يدفعنا الوعد إلى الاستعداد. الذي يصدق أن المطر آتٍ يبحث عن سقف، والذي يصدق أن الآخرة آتية يبحث عن عمل صالح.

إنا كنا فاعلين

(إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

العبارة نفسها جاءت بعد تسبيح الجبال مع داود: (وَكُنَّا فَاعِلِينَ)، وتعود هنا عند الإعادة. الذي جعل الجبل يسبح، والنار سلامًا، والبحر طريقًا، والعقيم تلد، والحوث يحفظ يونس، هو الذي يطوي السماء ويعيد الخلق.

لا تتوقف أفعال الله على تصديق المكذبين. سيقع الوعد، سواء آمن به الناس أو جحدوه؛ فالحقائق لا تنتظر تصويت البشر كي تكون حقائق.

حين يقول الله: **(إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)**، يسقط كل تردد. ليس المستقبل خارج قدرته، وليس الموت منطقة يفقد عندها سلطان الخلق. الذي خلق الزمن لا ينتظر الزمن ليمنحه القدرة على الفعل.

وإذا استقر هذا في القلب، صار وعد الله أصلب من الحاضر المرئي. قد يرى المؤمن الطاغية قويًا، لكنه يرى فعل الله آتيًا. وقد يرى جسدًا عزيزًا يوضع في التراب، لكنه يرى الإعادة خلف المشهد. وقد يرى الحق مستضعفًا، لكنه يعرف أن الفاعل في التاريخ والكون هو الله.

الفصل الحادي والعشرون

أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

الوراثة التي لا تُمنح للادعاء بل يصنعها الصلاح

بعد طي السماء وإعلان البعث، تضع السورة وعدًا آخر يتعلق بعاقبة الصراع في الأرض:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ).

(كَتَبْنَا)؛ فهو وعد ثابت في كتب الله، لا أمنية عاطفية يواسي بها المستضعفون أنفسهم. وذكر الزبور الذي أوتيه داود، بعد الذكر السابق أو بعد أم الكتاب على ما ورد في أقوال المفسرين، لتظهر وحدة الوعد في الرسائل.

لم تكن رسالة الأنبياء دعوةً إلى نجاة فردية تنفصل عن الأرض، بل إلى إقامة الصلاح فيها. الإنسان خُلق مستخلفًا، والإيمان الذي لا يثمر عدلاً وعمرانًا ورحمةً في واقع البشر لم يؤد أثره الكامل.

لكن الآية لا تقول إن الأرض يرثها أصحاب الشعارات، ولا الذين يحملون أسماءً إسلاميةً بلا مضمون، بل:

(عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ).

العبودية أولاً، والصلاح ثانيًا. صلة بالله، وأهلية للعمران. خضوع للوحي، وقدرة على حمل أمانة الأرض.

عبادي

أضافهم الله إلى نفسه تشريعًا:

(عِبَادِي).

ليست قوتهم الأولى في عددهم، بل في عبوديتهم. تحرروا من الأصنام، ومن عبادة الذات، ومن الخوف المطلق من الطغاة، فصاروا قادرين على إقامة ميزان الله.

الذي لم يتحرر من شهوته قد يطرد طاغيةً من قصره ثم يعيد إنتاجه في نفسه. والذي لا يسجد لله قد يطلب من الناس أن يسجدوا له حين يملك القوة. ولذلك كان بناء العبد سابقًا لبناء الدولة؛ لأن المؤسسات تأخذ في النهاية شيئًا من أخلاق الذين يديرونها.

لا يكفي أن يصل الصالحون في الاسم إلى السلطة؛ ينبغي أن تصل عبوديتهم معها. فإذا دخلوا القصر وتركوا التقوى خارجه، لم تعد وراثتهم امتدادًا لوعد الآية، بل امتحانًا قد يسقطون فيه.

والعبودية تضع الحاكم والمحكوم تحت شريعة واحدة. لا أحد أكبر من الحق، ولا أحد فوق السؤال. فإذا أصبح الإنسان لا يُسأل عما يفعل، فقد نازع معنىً من معاني الربوبية؛ فالله وحده (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ).

الصالحون

الصلاح ليس مشاعر طيبة فقط؛ إنه أهلية تحفظ الأرض من الفساد. صالح في عقيدته، وفي خلقه، وفي علمه، وفي قدرته على أداء الأمانة.

قد يكون الإنسان صالحًا في عبادته الفردية، لكنه غير كفاء لمهمة إدارية، فلا يكون توليته لها صلاحًا. فالمناصب ليست جوائز للمتدينين، بل مسؤوليات تحتاج إلى أمانة وقوة وعلم. ومن الصلاح أن يعرف المرء حدّه، وألا يطلب موضعًا يفسد فيه لعجزه وإن حسنت نيته.

إن توريث الأرض يتطلب إنسانًا يجمع خشوع المحراب وعدل المحكمة وإتقان المصنع؛ كما رأينا في داود وسليمان. يصلي فلا يخون، ويذكر الله فلا يهمل حقوق الناس، ويتقن العلم فلا يحتقر الضعفاء، ويحمل القوة فلا يبطش.

والصالح لا يقيس نجاحه بمقدار ما جمع لنفسه، بل بمقدار ما أصلح. ما قيمة سلطان يزداد فيه رصيد الحاكم وتزداد معه جراح الناس؟ وما قيمة عمران ترتفع فيه الأبنية وتسقط كرامة الإنسان؟

الأرض لا تُعمر بالحجارة وحدها، بل بالعدل الذي يجعل الناس آمنين على أرواحهم وحقوقهم.

يرثها

الوراثة تعني أن مالكا ظاهرياً يمضي، ويأتي بعده آخر. وفي الكلمة تذكير بأن الطاعة ليسوا ملاكاً دائمين للأرض، مهما نقشوا أسماءهم عليها. إنهم مستأجرون قصيرو الأجل في ملك الله، ثم تُنزع منهم المفاتيح.

كان فرعون يقول: أليس لي ملك مصر؟ فصار ملكه إلى غيره، وبقي هو قصةً في ذم الاستكبار. وكل من يقول للأرض: أنت لي، تجيبه المقابر: مرّ من هنا قوم قالوا مثل قولك.

والوراثة قد تكون وراثة تمكين في الدنيا، وهي وعد للصالحين حين يستوفون أسبابه، كما تتضمن وراثة أرض الجنة في تمامها الأبدي. فالتمكين الدنيوي قد تتخلله دورات الابتلاء والتقصير، أما الوراثة الأخروية فلا يعقبها زوال.

وليس الوعد مبرراً للخمول. من ظن أنه سيرث لأنه يحمل اسم الصلاح، دون أن يبني العلم والقوة والعدل، فقد تعامل مع الوعد كأنه يعطل السنن التي أنزلها الله نفسه.

الله وعد، لكنه أمر بالإعداد. وأعطى الأرض لعباده، لكنه طلب منهم أن يمشوا في مناكبها، ويتعلموا، ويقيموا القسط، ويأخذوا بأسباب القوة. التوكل لا يختصر الطريق، بل يمنع الطريق من أن يتحول إلى معبود.

الفصل الثاني والعشرون

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ

الرسالة التي تبلغ بالقلب إلى غايته

ثم يقول تعالى:

(إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ).

في هذا القرآن، وفيما سُرد من أخبار الأنبياء والوعد والوعيد، بلاغ؛ أي كفاية وسبيل يوصل إلى الغاية.

ما يحتاجه القلب لهدايته موجود هنا: حقيقة الإله، وحقيقة الإنسان، ومعنى الابتلاء، ومصير الظلم، وطريق النجاة، ونماذج السائرين. لم يترك الوحي الإنسان بلا خريطة، لكنه لا يحمله قسراً إلى الوجهة.

وقد يكون البلاغ بمعنى الرسالة الكافية، ويكون بمعنى ما يبلغ بالإنسان مطلوبه. فالقرآن ليس كتاباً يخبرك عن الطريق فقط؛ إذا صحبته بصدق، بلغ بك إلى الله.

لكن الانتفاع به لقوم (عَابِدِينَ)؛ لأن العبادة تمنح المعرفة قابلية التحول إلى حياة. من قرأ قصص الأنبياء لمجرد المتعة الذهنية ربما خرج بالمعلومات، أما العابد فيسأل مع كل قصة: ماذا يريد الله مني؟

حين يقرأ عن إبراهيم يبحث عن صنمه.

وحين يقرأ عن أيوب يراجع ظنه في البلاء.

وحين يقرأ عن يونس يتعلم الاعتراف.

وحين يقرأ عن داود وسليمان يضع القوة تحت ميزان الشكر.

وحين يقرأ عن زكريا يستعيد رجاءه.

وحين يقرأ عن وراثته الأرض يسأل عن نصيبه من الصلاح.

القرآن يبلغ بالعابد لأنه لا يقف عند الدهشة، بل ينتقل منها إلى السجود والعمل.

الفصل الثالث والعشرون

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ

محمد ﷺ حين أرسلت الرحمة تمشي بين الناس

بعد موكب الأنبياء كله، تتجه السورة إلى النبي الخاتم ﷺ، فتختصر حقيقة رسالته في كلمة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ).

لم تقل: ذا رحمة فحسب، بل رحمة؛ كأن الرسالة امتزجت به حتى صار وجوده الرسالي صورةً للرحمة.

رحمةً في القرآن الذي أخرج العقول من الوثنية.

ورحمةً في التوحيد الذي حرر الإنسان من عبودية الإنسان.

ورحمةً في الشريعة التي حفظت الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

ورحمةً في الأخلاق التي جعلت القوة عدلاً والاختلاف إنصافاً.

ورحمةً في إنذار النار؛ لأن الذي يحذرك من الهلاك يرحمك، وإن ألمك تحذيره.

فالرحمة ليست تساهلاً يمحو الحقائق، ولا عاطفةً تترك الإنسان يسير إلى النار دون أن تزجه. قد تكون الرحمة كلمةً لينّةً تواسي، وقد تكون حكماً حازماً يوقف الظلم، وقد تكون عقوبةً عادلة تحمي المجتمع من المعتدي.

إن من يختصر الرحمة في اللين وحده يجعلها عاجزةً عن حماية الضعيف. وماذا تنفع المظلومَ رحمةٌ تبتسم للظالم ولا تمنعه؟

رحمة محمد ﷺ تجمع الحنان والعدل؛ يمسح على رأس اليتيم، ويقيم الحق، ويعفو حين يكون العفو إصلاحًا، ويواجه العدوان حين يصبح السكوت خيانةً للمستضعفين.

للعالمين

(لِلْعَالَمِينَ)؛ لم تكن رسالته محصورةً في قوم أو أرض أو عصر. حملت إلى البشرية كلها الميزان الذي يصلح اختلاف أزمانها، لأن أصول فطرتها وحاجاتها الكبرى لا تتغير.

هو رحمة للمؤمن إذ هداه.

ورحمة للباحث إذ دلّاه.

ورحمة للمخالف إذ أقام في التعامل معه العدل ومنع الإكراه في الدخول في الدين.

ورحمة للضعيف حين جعل له حقًا، وللمرأة حين رد إليها كرامتها، وللفقير حين جعل في مال الغني نصيبًا معلومًا، وللعبد حين فتح أبواب تحريره، وللحيوان حين نهى عن تعذيبه، وللأرض حين نهى عن الإفساد فيها.

بل كان وجود الرسالة رحمةً حتى لمن عاندها في زمن النبوة، إذ لم يعاجلوا بعذاب استئصال كما استئصلت أمم سابقة، وفُتح أمامهم باب التوبة.

وليس تكريم النبي ﷺ في رفعه فوق العبودية؛ فقد علمتنا السورة أن الأنبياء رجال يوحى إليهم. إنما عظمتهم في كمال عبوديته وحمل الرحمة التي أرسله الله بها.

ومن أحب الرسول حقًا، فليحمل نصيبًا من رحمته: لا بتميع ما جاء به، بل بإبلاغه بالحكمة، والعدل فيمن خالف، والرفق بالمحتاج، والنصرة للمظلوم، وتطهير القلب من شهوة الانتقام الشخصي.

لا يستقيم أن يعلن المرء محبة نبي الرحمة، ثم يكون أذى لأهله وجيرانه، أو قاسيًا على الضعيف، أو ظالمًا للمخالف. فالسنة ليست هيئة ظاهرة فحسب؛ إنها قلب يمتلئ رحمةً وصدقًا وعدلاً.

الفصل الرابع والعشرون

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ

البلاغ الأخير: هل أنتم مستسلمون؟

بعد إعلان الرحمة يأتي مضمون الرسالة:

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

عادت السورة إلى الكلمة التي جمعت الأنبياء:

(إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

فلم تكن كثرة القصص خروجًا عن القضية المركزية، بل شروحًا حيةً لها. كل نبي جسّد معنى التوحيد في امتحان مختلف:

التوحيد في مواجهة الموروث عند إبراهيم.

والتوحيد في طول الدعوة عند نوح.

والتوحيد في المرض عند أيوب.

والتوحيد في الحكم عند داود وسليمان.

والتوحيد في الظلمات عند يونس.

والتوحيد أمام استحالة الأسباب عند زكريا ومريم.

الواحد هو الذي نادوه جميعًا، وهو الذي نجاهم جميعًا، وإليه يرجعون.

قال: (إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ). الرسول لا يخترع العقيدة، ولا يصنعها استجابةً لروح عصره؛ إنه يتلقى الوحي ويبلغه. وهذا يمنح الرسالة ثباتها؛ فهي لا تتبدل بتبدل الأذواق، وإن تنوعت طرائق عرضها وتنزيلها على الواقع.

ثم لم يقل: فهل أنتم مقتنعون فقط، بل:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

لأن التوحيد يطلب استسلامًا. قد يقتنع العقل بأن الله واحد، لكن النفس تبقى متمردة على أمره. كان إبليس يعرف ربه، لكنه لم يُسلم له حين تعارض الأمر مع كبره.

الإسلام أن تنقاد لله حين يوافق الأمر رغبتك وحين يخالفها، وأن تُسلم له حكمك على نفسك لا على الآخرين فقط. كثيرون يحبون من الدين ما يمنحهم حقوقًا، ويثقل عليهم ما يفرض واجبات؛ يحبون آيات إدانة خصومهم، ويعرضون عن الآيات التي تكشف أمراضهم.

والسؤال: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) يفتح باب الاختيار، لكنه يهز ضمير المخاطب. بعدما ظهر أن الإله واحد، ما الذي بقي يمنعكم من الاستسلام؟ أهو غياب الدليل، أم كبرياء النفس؟

الفصل الخامس والعشرون

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ

حين ينتهي البلاغ وتبقى مسؤولية الاختيار

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ).

إن تولوا بعد البيان، فقد انتهت مسؤولية الرسول في البلاغ. (آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ)؛ أعلمتكم إنذارًا واضحًا مستويًا، لا أخفي فيه عن بعضكم ما أظهره لبعض، ولا أغدر بكم، بل أقف وإياكم على علم بيّن بانتهاء العهد ووضوح الموقف.

الإسلام لا يبني دعوته على الخداع. حتى الخصم يُعلم بالموقف، ولا يؤخذ على غرةٍ باسم الانتصار للدين. فالغاية المقدسة لا تطهر وسيلةً خائنة؛ والحق لا يحتاج إلى الغدر كي ينتصر.

وفي الآية أدب الداعية بعد البلاغ: لا يملك أن يكره القلوب على الإيمان، ولا أن يظل ممزقًا لأنه لم ينجح في هداية من اختار التولي. يحزن عليهم، لكنه لا يحمل نفسه وظيفَةً لم يجعلها الله له.

أنت تبين، ولا تملك أن تخلق البصيرة. تنصح، ولا تملك أن تنتزع من النفس هواها. وتزرع، ولا تملك أن تأمر البزرة بالإنبات. فإذا أديت ما عليك بحكمة وصبر، فسلم النتائج لله.

(وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ).

الرسول ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه. يعرف أن الوعد آتٍ، لكنه لا يحدد من عند نفسه موعده.

وهذا رد على كل من يطلب تحديد الأزمنة التي سكت عنها الوحي. ليس الإيمان أن نحول العلامات إلى جداول ونجزم بما لم يجزم به الله؛ بل أن نستعد للموعود سواء كان قريباً أو بعيداً.

ومن رحمة الله أن أخفى عن الإنسان أجل الساعة وأجل موته. لو عرف بعض الناس بُعد أجله ربما تمادى، ولو عرف قربه ربما شلَّه الرعب. فتركه بين احتمالين ليعيش مستعداً عاملاً، لا آمناً ولا قانطاً.

وليس السؤال الأهم: أقرب أم بعيد؟ فكل آت قريب، وكل عمرٍ مهما طال قصير عند انقضائه. السؤال الأهم: ماذا أعدنا له؟

الفصل السادس والعشرون

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ

حين تسقط الأسرار أمام علم الله

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ).

ما يعلنونه من التكذيب يعلمه، وما يخفونه من الكيد أو الاعتراف الداخلي بالحق يعلمه. يسمع الكلمة، ويعلم ما قبلها في القلب، وما يراد بها، وما تركته من أثر.

البشر يحكمون على الظاهر؛ يرون ابتسامةً ولا يعلمون ما خلفها، ويسمعون مديحًا ولا يدركون غرضه، وقد يسيئون فهم صمتٍ مخلص. أما الله فيعلم الجهر والمكتوم.

هذه الآية عزاءٌ لمن ظلم بنيةً نُسبت إليه ولم يحملها. قد يعجز أن يشرح صفاء قصده للناس، لكن الله يعلم ما يكتم قلبه من خير. وهي إنذارٌ لمن أتقن الصورة وأفسد السريرة؛ قد تخدع الناس بالعبارة، لكنك لا تخدع من يعلم ما لم تقله.

وفي الآية دعوة إلى تطهير المساحة الداخلية، لا تحسين الواجهة وحدها. فالدين لا يريد إنسانًا يبدو صالحًا تحت الضوء ثم يتغير في الخلوة، بل قلبًا يعلم أن خلوته أيضًا في علم الله.

وإذا صلح المكتوم، لم يعد الإنسان عبدًا دائمًا لتفسير الناس. يفعل الحق ولو أسأؤوا فهمه، ويتجنب الباطل ولو أحسنوا الظن به؛ لأن مركز الرقابة انتقل من العيون المتقلبة إلى علم الله الثابت.

الفصل السابع والعشرون

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ

الْإِمْهَالِ الَّذِي قَدْ يَبْدُو نِعْمَةً وَهُوَ سُؤَالٌ

(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ).

لعل تأخر العذاب فتنة واختبار، ومتاع إلى أجل معلوم. قد يظن المكذب أن عدم وقوع الوعيد فوراً دليلاً على أنه لن يقع، بينما يكون التأخير نفسه جزءاً من امتحانه.

الإمهال مساحة ذات وجهين: يمكن أن تتحول إلى توبة، ويمكن أن تتحول إلى استدراج. الوقت نفسه الذي يرفع به المؤمن درجته يزيد به المصرّ حجته.

ليست النعمة في طول العمر وحده، بل في حسن استعماله. وقد يعيش إنسان سنوات قليلة فيملؤها بما يبقى، ويعيش آخر عمراً طويلاً لا يزداد به إلا بعداً.

(وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)؛ كل ما في الدنيا مؤقت، حتى لو لم نشعر بنهايته. الصحة إلى حين، والمال إلى حين، والقوة إلى حين، واللقاء بالأحبة إلى حين. ليست المشكلة في أن نستمتع، فقد أباح الله الطيبات؛ وإنما أن ننسى كلمة إلى حين، فنبني علاقتنا بالأشياء كأنها باقية.

من عرف أن المتاع إلى حين شكر دون أن يغتر، وأحب دون أن يؤلّه، وملاك دون أن يُمْلَك، واستعد للفراق دون أن يفسد به جمال اللقاء.

الفصل الثامن والعشرون والأخير

رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ

خاتمة السورة: حين يرفع الرسول قضيته إلى الله

تُختتم السورة بهذا الدعاء:

(قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

بدأت السورة بالحساب، وانتهت بطلب الحكم. وبين البداية والنهاية قامت الحجة، ومشت مواكب الأنبياء، وسقطت الأصنام، واستجيب الدعاء، وانكشفت عاقبة الظلم. فلم يبق بعد البلاغ إلا أن يُرفع الأمر إلى الحاكم الحق:

(رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ).

ليس معنى ذلك أن حكم الله يمكن أن يكون بغير الحق؛ تعالى الله عن الظلم. إنما هو دعاء بتعجيل الفصل وإظهاره، بعدما تهادى المكذبون في عنادهم.

والرسول لا يقول: رب انتقم لذاتي؛ بل: (احْكُم بِالْحَقِّ). القضية ليست جرح الكرامة الشخصية، بل ظهور الحق وإنصافه. وهذا هو صفاء صاحب الرسالة: لا يستخدم الدين لتصفية غضبه، بل يضع غضبه نفسه تحت حكم العدل.

كم يصعب على الإنسان أن يطلب الحق المجرد حين يكون طرفًا في الخصومة! قد يقول: أريد العدالة، لكنه يريد في أعماقه أن تأتي العدالة على الصورة التي ترضيه. أما دعاء النبوة فيسلم القضية إلى الله: احكم بالحق، ولو كشف حكمك لي موضعًا ينبغي أن أراجعه في نفسي.

وربنا الرحمن

(وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ).

في مقام طلب الحكم على المكذبين يذكر اسم الرحمن. فالذي يحكم بالحق هو الرحمن، ولا تعارض بين عدله ورحمته. حكمه ليس انتقام قوة غاضبة على طريقة البشر، بل وضع الأشياء في مواضعها من رب وسعت رحمته كل شيء.

رحمته هي التي أرسلت الرسل قبل الحساب.

ورحمته هي التي كررت الإنذار.

ورحمته هي التي أمهلت.

ورحمته هي التي فتحت باب التوبة لكل من رجع.

وعدله هو الذي يمنع الظالم من أن يجعل هذه الرحمة ترخيصًا دائمًا لظلمه.

لو كانت الرحمة تعني إسقاط حقوق المظلومين، لكانت قسوةً عليهم. ولهذا كان الحكم بالحق من كمال الرحمة؛ رحمةً بالمقهور حين يُنصف، وبالمجتمع حين يُطهر من العدوان، وحتى بالظالم حين يُردع قبل أن يستكمل هلاكه.

ولفظ (رَبَّنَا) يواجه كل ما وصفوه به. مهما نسبوا إليه الشريك والولد، يظل ربنا الرحمن كما عرّف نفسه، لا كما تصفه الأوهام.

المستعان على ما تصفون

(الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

هو الذي تُطلب معونته على أكاذيبهم وافتراءاتهم واستهزائهم. فالبهتان ليس صوتًا عابرًا؛ قد يكون حملاً ثقیلاً على النفس، ولا سيما حين يعرف الإنسان براءته ويعجز عن تغيير الصورة التي صنعها الآخرون عنه.

لا تقل السورة لصاحب الحق إن الكلمات لن تؤلمه، بل تعلمه أين يضع ألمها:

عند الله المستعان.

قد تعجز عن مطاردة كل شائعة، والرد على كل كاذب، وتصحيح صورتك في كل قلب. وإذا جعلت حياتك كلها دفاعًا عن نفسك، نجح خصومك في تحويلك عن رسالتك. خذ من البيان ما يلزم، ثم استعن بالله وواصل الطريق.

المستعان ليس مجرد من نشكو إليه، بل من يمدّنا بالقوة كيلا تصنع
أوصاف الناس هويتنا. قد يقولون عنك ما ليس فيك، لكنك لا تصبح
ما قالوه. حقيقتك عند الله يصنعها صدقك وعملك، لا رواية الخصم.

وقد وصفوا النبي ﷺ بالساحر والشاعر والمفتري، لكن تلك
الأوصاف مانت في أفواه قائلها، وبقي محمد ﷺ رحمةً للعالمين. ليس
كل صوت مرتفع قادرًا على تغيير الحقيقة، ولا كل افتراء يعيش؛
الحق أطول عمرًا من اللغة التي حاربتة.

الخاتمة

الأنبياء: وحدة الطريق ووعْدُ النهاية

تبدأ سورة الأنبياء بإنسان غافل يقترب منه الحساب، وتنتهي برسول يستعين بالرحمن وينتظر حكم الحق. وبينهما رحلة كاملة لإيقاظ الوعي:

تضعنا أمام القرى التي قصمها الظلم، لنلا نغتر بطول الإمهال.

وترفعنا إلى كون لم يُخلق لعباً، لنعرف أن حياتنا ليست عبثاً.

وتقيم برهان التوحيد من وحدة السماوات والأرض، ليتوحد القلب على ربه.

وتدعونا إلى رؤية الماء والجبال والأفلاك، لنلا تحجبنا الألفة عن المعجزة.

وتضع الموت أمام كل نفس، لنلا نبني فوق وهم الخلود.

ثم تمر بنا على الأنبياء، لا بوصفهم أسماء في ذاكرة الماضي، بل منازل للنفس في طريقها إلى الله:

إبراهيم هو العقل حين يتحرر من الصنم، والشجاعة حين تقف أمام الجماعة، واليقين حين تدخل النار فلا تفقد سلامها.

ولوط هو الفطرة حين تعيش غريبةً في قرية السوء، ثم تجد سعتها في رحمة الله.

ونوح هو الصبر حين يزرع بعد أن تتعب الفصول، ويبني السفينة قبل ظهور الماء.

وداود هو القوة حين تسبح، والحكم حين يعلم أن الله عليه شاهد،
والصناعة حين تصبح درعًا يحفظ الإنسان.

وسليمان هو الملك حين لا يعبد ما سُحِّرَ له، والطاقة حين يمنحها
العدل وجهتها.

وأيوب هو الألم حين لا يسيء الظن، والضر حين يُوضَع أمام
رحمة أرحم الراحمين.

وإسماعيل وإدريس وذو الكفل هم الصبر الهادئ الذي لا يحتاج إلى
ضوضاء ليكتبه الله في الصالحين.

ويونس هو المخطئ حين لا يهرب من الاعتراف، والغريق حين
يجد التوحيد أوسع من البحر، والمظلم حين يضيء قلبه بالتسبيح.

وزكريا هو الرجاء حين تشيخ الأسباب، والدعاء حين يعترف
بالوحدة ولا يعبد العطاء.

ومريم هي الطهر حين تحاصره التهمة، والتسليم حين يصبغ الجسد
موضع آية.

وعيسى هو المعجزة التي تدل على الخالق، والعبد الكريم الذي
حفظ القرآن مقامه من الجفاء والغلو.

ومحمد ﷺ هو الرحمة التي جاءت بعد الموكب كله لتجمع أنواره،
وتبلغ الرسالة إلى العالمين.

إنهم تجارب متعددة لعبودية واحدة. لم تكن عظمتهم في أنهم عاشوا بلا محن، بل في أن المحن لم تغير وجهتهم. النار والماء والمرض والوحدة والملك والتهمة والحوت؛ اختلفت صور الامتحان، لكن الكلمة بقيت:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

هذه هي روح السورة. ليست وحدانيةً نظريةً فحسب، بل وحدة الوجهة في كل حال:

إذا مرضت فلا ترى الشفاء مستقلاً عن الله.

وإذا ملكت فلا ترى القوة ملكاً ذاتياً.

وإذا ظلمت فلا تجعل خصمك أكبر من عدل الله.

وإذا أخطأت فلا تجعل ذنبك أكبر من باب التوبة.

وإذا كنت وحدك فلا تجعل كثرة المخالفين دليلاً على بطلان الحق.

وإذا أغلقت الطرق فلا تنس أن الدعاء لا يحتاج إلى طريق أرضي كي يصل.

وتربط السورة بين الصلاح ووراثة الأرض؛ فلا يكفي الانتساب إلى الأنبياء ما لم نحمل قيمهم. الأرض لا تستحقها أمة لأنها تملك الذكريات وحدها، بل حين تصبح أهلاً للأمانة: علمًا وعدلاً وعبادةً وإتقانًا ورحمةً.

إن الوعد لا يدلل الكسالى، بل يستنهض الصالحين. وأول أرض ينبغي أن يرثها الحق هي أرض النفس: أن يستعيد الإيمان فيها ما احتله الهوى، وأن يسقط صنم الخوف والطمع والكبر، وأن تصبح الجوارح مملكة لا يُعبد فيها إلا الله.

فإذا صلح الإنسان لإدارة نفسه، بدأ طريق الصلاح الذي يؤهله للمشاركة في عمران الأرض.

ثم تنتهي السورة حيث ينبغي لكل قضية أن تنتهي:
(رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ).

لن يبقى الظلم بلا نهاية، ولن يستمر الالتباس إلى الأبد، ولن تظل التهم معلقة بلا فصل. هناك يوم تُطوى فيه السماء، لكن صحيفة العمل تُفتح؛ ويُبعد أهل الحسنى عن النار، وتلتقاهم الملائكة بالبشارة.

هناك يعرف الغافل أن الحساب كان قريبًا.

ويعرف الصابر أن الفرج لم يكن وهمًا.

ويعرف المظلوم أن دمه لم يسقط خارج علم الله.

ويعرف العامل أن سعيه لم يُكفر.

ويعرف المؤمن أن الوعد كان حقًا.

وهكذا لا تخرج النفس من سورة الأنبياء وقد عرفت أخبار الرسل فحسب، بل وقد عرفت الطريق الذي يجمعها بهم: أن تعبد الله في كل تحول، وتحفظ يقينك حين تتغير المشاهد، وتبقى رحمةً في عالم يزداد قسوةً، وتصنع سفينتك قبل الطوفان، وتقول في الظلمة: **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)**، وفي الضر: **(وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)**، وفي الخصومة: **(رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ)**.

فإذا كان ربنا الرحمن، فليست وحشة الطريق نهاية؛ وإذا كان هو المستعان، فليست قوة الباطل حجةً على بقاءه؛ وإذا كانت الأرض يرثها عباده الصالحون، فكل عمل صالح نغرسه اليوم هو حجر في بيت الوعد، وإن لم تره أعيننا مكتملاً.

وبهذا، بحمد الله وحده، تمَّ التدبر في سورة الأنبياء كاملةً، من الآية الأولى إلى الآية الثانية عشرة بعد المائة، ولم يبقَ من آياتها شيءٌ خارج هذه الرحلة التأملية.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.